من داخل السجن ١٨

معرفة النفس طريق لمعرفة الرب

الأستاذ عبد الوهاب حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: معرفة النفس طريق لمعرفة الرب

تأليف: أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

نشر: دار الوفاء للثقافة والإعلام

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠٢٢م - محرم ١٤٤٤هـ

البريد الالكتروني: Mediaalwafa@gmail.com

دار الوفاء للثقافة والإعلام - البحرين

٠٠٩٨٩١٦٤٤٧٥٥٦٩

daralwaffa

الموقع الرسمي

الفهرس

مقدمة الناشر ٧
بيان المفردات ١١
كلمة النفس ١١
حرف قد ١٧
كلمة الرب ١٩
مقدمات ذات صلة بالموضوع ٣١
أولاً: أهمية معرفة النفس ٣١
أمور مهمة تترتب على المعرفة بالنفس ٣٩
ثانياً: تفاوت المعرفة بالنفس ٤٦
أضواء قرانية ٤٩
ثالثاً: موانع معرفة النفس ٥٣
رابعاً: مراتب معرفة الله ٦٥
خامساً: بين المعرفة والعبادة ٦٩
سادساً: غربة الإنسان المعاصر عن نفسه ٧٥

غربة الإنسان المؤمن ٨٦
سابعاً: طرق معرفة النفس ٨٨
ثامناً: قواعد خاصة لفهم حديث موضوع البحث ٨٩
الأقوال في شرح الحديث ٩٢
القول الأول ٩٢
القول الثاني ٩٧
القول الثالث ١٠١
القول الرابع ١٠٢
إضاءة قرانية ١١٠
القول الخامس ١١٤
ملاحظات ختامية ١١٩

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلاة والسلام على محمدٍ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

إن لمعرفة النفس وآثارها أهمية كبيرة في تعيين المسار والمنهج الذي يتخذه الإنسان في حياته، حيث يعتبر النفس عنصر مؤثر جداً في تعيين مصير الإنسان في حياته وبعد مماته.

ومن هذا المنطلق كَتَب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين مفجر ثورة الرابع عشر من فبراير في البحرين كتابه تحت عنوان «معرفة النفس طريق لمعرفة الرب»، حيث يشرح المؤلف قول الإمام علي عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين معروفٌ بتأصيله الفكري للإسلام المحمدي الأصيل في أبعاده المختلفة، وخصوصاً في بعده الأخلاقي، ومن معرفته بشمولية الإسلام المحمدي الأصيل قام باتخاذ هذا المنهج بوصلةً له في حياته الجهادية ضد الطغاة والظلمة.

ولا يخفى عليك أيها القارئ العزيز بأن أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين قد تم اعتقاله في سنة ٢٠١١م من قبل السلطة الخليفية وهو إلى الآن خلف قضبان السجون الخليفية، حيث قضى من عمره الشريف ما يقارب ١٧ سنة في السجون الخليفية، وهذا الاعتقال هو الاعتقال الثالث له حيث تم اعتقاله سابقاً في انتفاضة الكرامة في تسعينيات القرن الماضي.

ويعتبر هذا الكتاب مقالة قد كتبها المؤلف ضمن مقالات متعددة من داخل السجن، فرأينا بأنه من الأفضل أن يتم فصل المقالات عن بعضها البعض وطباعتها بشكلٍ منفصل.

والكتب التي طُبعت للمؤلف من داخل السجن هم كالتالي:

١- الإسلام والعلمانية

٢- رسول الرحمة

٣- الإسلام دين الفطرة

٤- اللامنطق في الفكر والسلوك (مواجهة النبي موسى عليه السلام لفرعون)

وها هو كتاب «معرفة النفس طريق لمعرفة الرب» الكتاب

الخامس للمؤلف من داخل السجون الخليفية.

سائلين المولى عجل الله فرجه الفرج القريب لأستاذنا الكبير عبدالوهاب حسين ولجميع المعتقلين.

والحمدلله رب العالمين

دار الوفاء للثقافة والإعلام

قـول الإمـام علي بـن أبـي طالب عليه السلام: «مـن عرف نفسـه فقد عرف ربه»[1]

بيان المفردات

كلمة النفس

النفس والروح والعقل وجوه لحقيقة واحدة، تسمى الروح من جهـة ما هي جوهر بسـيط مجرد ومبدأ للحياة والحركة والشـعور والعـزم والإرادة والفكـر، وتسـمى النفـس من جهة ماهـي متعلقة بالجسد تعلق تدبير وتصرف تؤثر فيه وتتأثر به وتوظفه في القيام بأعمالهـا الماديـة، مثـل: الحركـة والشـعور، لكنها جوهـر متميز عنه، وقيل: هي وسـط بين المجرد والمادي، وتسـمى العقل من جهة ماهي مدركة لذاتها ومدركة للأشـياء الخارجية بها ولكونها مستعدة للبيان وفهم الخطاب.

مراتـب ودرجـات النفـس: النفـس (الـروح) حقيقـة واحـدة لكنهـا ذات درجـات ومراتـب متفاوتـة تختلف باختـلاف أثرها فـي الحياة، كما أن للنفس الإنسـانية مراتـب ودرجات للتكامل والرقـي في سـيرها إلـى الله ذي الجلال والإكرام الـذي هو غايتها القصـوى، ينـال منهـا الإنسـان حظوظـاً بمقـدار سـعيه وجـدّه

١- سفينة البحار، جزء ٢، صفحة ٦٠٣

ومجاهدته وسلامة سيره، وعليه يمكن تقسيم النفس إلى الأقسام والمراتب الرئيسية التالية:

أ. **النفس النباتية النامية:** بها يحصل التغذي والنمو والتكاثر والتوالد.

ب. **النفس الحيوانية الحسية:** هي جامعة لكل خصائص النفس النباتية بالإضافة إلى إدراك الجزئيات والحركة الإرادية والشعور والغرائز والشهوات والتلذذ.

ج. **النفس الإنسانية الناطقة:** هي جامعة لكل خصائص النفس الحيوانية بالإضافة إلى الفكر وإدراك الكليات والتحلي بالأخلاق وصنع الماهية.

د. **النفس الناطقة القدسية:** هي النفس التي يؤيد الله تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين بسبب حسن إيمانهم وأخلاقهم الفاضلة وأعمالهم الصالحة، قول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[1] وهي أشرف وجودًا وأعلى مرتبة وأقوى أثرًا من الروح الإنسانية الناطقة التي تجمع كل خصائصها مع زيادة، قول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

١- المجادلة: ٢٢

بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]

ه. **النفس الكلية الإلهية الملكوتية:** هي النفس الإنسانية الكاملة الجامعة لكل صفات الكمال الإنساني الممكن المقدر لها، والخالية من كل عيب ونقص في حقها، وهي النفس التي يؤيد الله تبارك وتعالى بها الأنبياء والرسل الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[2]، **وهي أشرف** وجوداً وأعلى مرتبة وأقوى أثراً من النفس الناطقة القدسية.

مقامات النفس وأحوالها: للنفس مقامات وأحوال مختلفة تعود إلى اختلاف درجات الكمال والصلاح والطاعة والمعصية لدى الإنسان، وذلك لأن الإنسان واقع تحت تأثير قوى النفس الثلاث: قوة الشهوة، وقوة الغضب وقوة العقل، فبالشهوة يحرص الإنسان على الملذات الحسية وجلب المصالح، وبالغضب يحرص الإنسان على دفع الضرر والتدافع والتنافس والتغالب واللجوء إلى أنواع الحيل والخداع، وبالعقل يحرص على الوسطية والاعتدال وتحصيل الحكمة ومختلف العلوم

١- الأنعام: ١٢٢

٢- البقرة: ٨٧

والمعارف والتحلي بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، ويفعل الخيرات والأعمال الصالحة التي تسوقه إلى الكمال وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة الباقية والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي وتحقيق غاية وجوده الموافقة لطبعه وخلقه وتكوينه، وعليه: وجدت حالات عديدة ومقامات ودرجات متفاوته للنفس، وهي:

أ. **النفس الأمارة بالسوء:** قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، وهي النفس المتابعة للأهواء الشيطانية المستغرقة في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية، المستقرة والمداومة على مخالفة أمر المولى سبحانه وتعالى ومعصيته في كل وقت وأوان، بحيث أصبحت المعصية والاستكبار على الحق ورذائل الأخلاق ملكة راسخة لديها فلا تشعر بالمسؤولية عن شيئ ولا تكترث لأي ذنب أو جريمة أو إساءة لأحد ونحو ذلك.

ب. **النفس اللوامة: قول الله تعالى:** ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2]، وهي النفس التي تميل إلى الخير والطاعة

١- يوسف: ٥٣

٢- القيامة: ٢

تـارة وإلـى الشـر والمعصية تـارة أخرى، فتخلـط العمل الصالح بالعمل السيء وتندم على فعل الشر والمعصية وتـرك الخيـر والتقصير في الطاعة، وتلـوم صاحبها على ذلك وتفرح لفعل الخير والطاعة والإحسـان وترغب فيه وتتوق إليه.

ج. **النفـس المطئنـة:** قـول الله تعالـى: ﴿يَآ اَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1] وهـي النفـس المنقـادة تمامـاً إلـى العقـل والدين، المسـلّمة إلى الحق، الساكنة إلى حب الله ذى الجـلال والإكرام، المؤيدة بالعلـم وثلج اليقين والبصيرة التـي سـكّنها روح الإيمـان وقـرب عينهـا بـالله سـبحانه وتعالى، وانقطعت إليه، فلا يخالجها الشـك والريب في الديـن، المسـتقرة على الطاعة والعبـادة وفعل الخيرات والأعمـال الصالحـة المطمئنـة إلـى الهـدى، وتتجلـى بالأخـلاق الفاضلـة، وتشـعر بالأمـن والسـكينة والوقـار؛ فـلا يسـتفزها خـوف ولا حـزن ولا مصيبـة، ولا ترهيـب ولا ترغيـب الأعـداء والسماسـرة، ولا يطمـع الشـيطان فـي إضلالهـا وإغوائها وهي راضية بقضاء الله تعالى وبقدره، وبما كتب الله ﷻ لها وعليها وهي مرضية عنده بحسـن إيمانها وأخلاقها الفاضلة وأعمالها الصالحة.

١- الفجر: ٢٧

معاني أخرى للنفس: تطلق النفس على ذات الشيء وجملته وجوهره وحقيقته، فيقال: جاء زيد بنفسه، أي جاء بذاته وعينه وشخصه، وهذا المعنى يطلق على الله سبحانه وتعالى وعلى غيره، قول الله تعالى على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1]، وقول الله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[2]، وتطلق النفس على الدم، فيقال: سالت نفسه، أي سال دمه، وتطلق على العين، فيقال: أصابته نفس، أي أصابته عين، والجمع: أنفس ونفوس.

ونفس العالم: مبدأ وحدة العالم وحركته، وقيل: جملة الجواهر غير الجسمانية التي هي كمالات مدبرة للأجسام السماوية المحركة لها على سبيل الاختيار العقلي.

والنفسي: المنسوب إلى النفس.

والعلاج النفسي: استخدام الوسائل النفسية، مثل: الاقناع وتقوية الإرادة والتحليل النفسي والتنويم المغناطيسي ونحو ذلك في علاج الأمراض الجسمية والنفسية.

والقياس النفسي: قياس الظواهر النفسية من جهة شدتها

١- المائدة: ١١٦

٢- طه: ٤١

وتواترها ومدتها ونحو ذلك.

وعلم النفس: كان في القديم وما زال فرعاً من الفلسفة، يبحث في حقيقة النفس (الروح) وعلاقتها بالجسد وبقاءها بعد الموت، وما فيه كمالها ونقصها وسعادتها وشقاؤها ونحو ذلك، وفي العصر الحديث: هو علم مستقل من العلوم الإنسانية يبحث في ظواهر النفس، الشعور واللاشعورية للكشف عن قوانينها العامة.

والنفساني: المنسوب إلى علم النفس، ويطلق على العالم المتخصص في علم النفس، وعلى الشخص المدرك لأحوال النفس وخصائصها.

حرف قد

حرف يختص بالأفعال، الماضي والمضارع المنصرفين المثبتين، ويشترط في المضارع أن يتجرد من النواصب والجوازم والسين وسوف، ولا يجوز أن يفصل بين قد وبين الفعل بفاصل ماعدا القسم؛ لأن قد كالجزء من الفعل، أما القسم فجائز أن يفصل بينها وبين الفعل، فيقال: قد والله بذلت وسعيت.

وإذا دخلت قد على الماضي أفادت تحقق معناه (التأكيد) وتجديد الفعل، مثل: قد منّ الله علينا، أي منّ علينا منا يتجدد علينا حيناً بعد حين.

وإذا دخلت قد على المضارع أفادت الشك وتقليل وقوعه أو الوقوع في حالة دون حالة، مثل: قد يصدق الكذوب، أي يصدق أحياناً، وتفيد التحقيق مع المضارع إن دل عليه دليل، مثل: قد يعلم الله ما أنتم عليه.

وتأتي بمعنى ربما، مثل: قد يأتي زيد، أي ربما يأتي.

وتأتي اسماً للفعل بمعنى حسب ويكفي، مثل: قد زيد درهم، أي يكفيه وحسبه درهم.

ولها عند النحويين ستة معاني، وهي:

أ. التوقع، فيقال: قد يأتي الغائب، أي يتوقع وينتظر قدومه

ب. تقريب الماضي من الحال، فيقال: قد أنهى العمل، أي أنهاه من وقت قريب.

ج. التحقيق، فيقال: قد أفلح المؤمنون، أي أفلحوا حقيقة وواقعاً.

د. التقليل، فيقال: قد يصدق الكذوب، أي قليل ما يصدق.

ه. التكثير، فيقال: قد يجود الكريم، أي كثيرًا ما يجود.

و. النفي، فيقال: قد كنت في خير، فتعرفه بنصب تعرف فيدل أن قد بمعنى النفي.

مشتق من التربية بمعنى إنشاء الشيء حالاً بعد حال (تدريجياً) إلى حد التمام، ويطلق الرب على المالك المتصرف والمدبر والسيد والمربي والمنعم والصاحب، والجمع: الأرباب.

والرب مطلقاً (محلى بالـ التعريف) لا يقال إلا لله سبحانه وتعالى وحده؛ لأنه يدل على العموم والكمال، ومعناه: المالك المربي لجميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، والقائم بأمورهم، والمتكفل بمصالحهم، ويقال بالإضافة (مجرد من ال التعريف) لله سبحانه وتعالى ولغيره، فيقال: رب العالمين، ورب الأسرة، ورب العمل ونحو ذلك.

ورب الأرباب: هو الله رب العالمين.

والرباني المنسوب إلى الرب، بزيادة الألف والنون للمبالغة، والجمع: الربانيون. ويطلق الرباني على الكامل العلم والعمل، وعلى الراسخ في العلم الذي يطلبه خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى، وعلى شديد التمسك بالدين الإلهي الحق، ويعمل بمقتضاه، ومن صبر مع الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام في جهادهم وابتلاءاتهم، مثل: أبي طالب والحمزة والمقداد بن الأسود ومالك الأشتر وحبيب بن مظاهر وغيرهم، وعلى المتأله العارف بالله ذي الجلال والإكرام ومن كان علمه وهبياً (لدنياً)،

قول الله تعالى: ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[1] الذي يربي أمر الناس بتدبيره وصلاحه، وأمر الله جل جلاله بالرجوع إليه والأخذ منه، وفي الحديث الشريف عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أنا رباني هذه الأمة» وقيل: الرباني يطلق على الذي يربُّ العمل، أي يقومه، مثل: الفقهاء والحكماء، أو الذي يربُّ نفسه بالعلم، وهما في الحقيقة والواقع متلازمان؛ لأن من رب نفسه بالعلم فقد رب العلم، ومن رب العلم فقد رب نفسه بالعلم.

والربوبية: مصدر يقال في الله خاصة، ويقابلها: الربابة التي تقال في غير الله سبحانه وتعالى.

وعلم الربوبية: هو علم الإلهيات، وهو أحد فروع الفلسفة، ويبحث في الأدلة والبراهين على وجود الله سبحانه وتعالى، وفي الصفات والأسماء الإلهية، وفي التدبير والعناية الربانية، وفي الخير والشر، والقضاء والقدر، والبداء، والجبر والتفويض، ومصير الإنسان، وتجرد الروح وخلودها وبقائها بعد الموت، والمعاد والحساب والجزاء، والنبوة والإمامة والأخلاق الدينية والقيم الروحية ونحو ذلك.

وتوحيد الربوبية: يعني انحصار تدبير العالم و إرادته وتنظيم

١- الكهف: ٦٥

شؤونه والتصرف فيه في الله سبحانه وتعالى وحده لاشريك له، بحيث يؤثر بعضه في بعض حتى يصل كل موجود إلى كماله الخاص المقدر له واللائق به وحسب قابليته واستعداده ويحقق غاية وجوده، وأن الله سبحانه وتعالى الذي هو رب الأرباب لا يحتاج في أفعاله إلى غيره من الموجودات ولا يمكن لأي موجود غير الله سبحانه وتعالى أن يعينه ويقدم له المساعدة في أفعاله؛ لأن غيره من الموجودات فاقد للوجود الذي ليست له أية استقلالية في نفسه وبقائه وصفاته وأفعاله وخياراته ومصيره عنه، فجميع ما يملكه وجميع أحواله مستمدة منه ومتفرعة عنه وخاصة لقدرته وسلطانه وإرادته وملكيته الحقيقية والتكوينية، وبناءً عليه: فالله سبحانه وتعالى (رب الأرباب) هو الموجود الوحيد الذي يفيض تأثيره في كل مكان وفي كل شيء ولا يحتاج إلى غيره؛ لأن غيره محتاج إليه في كل وجوده وشؤونه وقائم به، وفاعليته وتأثيره في طول فاعليته وتأثيره، وخاضع لقدرته وإرادته وسلطانه، مما يدل على حتمية وضرورة انحصار تدبير العالم فيه، واستحالة مشاركة غيره له في شيء من ذلك، ويترتب على ذلك النتائج المهمة التالية:

أ. أن لا أحد يستحق الطاعة والعبادة في نفسه إلا الله وحده لا شريك له.

ب. ضرورة التوكل على الله ﷻ في الأمور كلها، بمعنى أن

يأخذ الإنسان في أموره بالأسباب الطبيعية المباشرة ويستعين بالله ﷻ في ذلك، ويعتمد عليه في تحصيل النتائج، وقيل في معنى التوكل: هو الثقة بما عند الله ﷻ واليأس عما في أيدي الناس، وسكون القلب بالموجود عن المفقود، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1] وفي الحديث النبوي الشريف: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[2]، وقال المولى العارف النراقي: «والتوكل باب من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين»[3]، وعند الصوفية أعظم حجاب بين العبد وربه هو اشتغاله بتدبير نفسه، واعتماده على عاجز مثله.

ج. أن لا يتخلى الإنسان عن طاعة الله ﷻ والنهوض بالواجبات والمسؤوليات التي ينبغي عليه القيام بها تحت تأثير الترهيب والترغيب من أحد غير الله بالله

١- الطلاق: ٣

٢- جامع السعادات، جزء ٣، صفحة ٢٢١

٣- نفس المصدر، صفحة ٢٢٠

سبحانه وتعالى، أو الخوف من شيء أو الطمع فيه، أي: لا يخاف ولا يطمع في شيء غير الله سبحانه وتعالى؛ لأن لا أحد يستطيع أن يضره أو ينفعه إلا الله ﷻ أو بإذنه.

الجدير بالذكر: أن توحيد الربوبية يشمل أيضاً التشريع والتدبير للمسيرة التاريخية للإنسان وليس فقط تدبير عالم المادة والطبيعة والموجودات المجردة، فكما لا يشارك الله سبحانه وتعالى أحد في تدبير العالم (الكون)، لا يشاركه أحد في التشريع وفي تدبير المسيرة التاريخية للإنسان، قول الله تعالى: ﴿اِتَّخَذُوٓا اَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَانَهُمۡ اَرۡبَابًا مِّنۡ دُونِ اللّٰهِ﴾[1]، وذلك بالرجوع إليهم في التشريع وفي الحلال والحرام، وتفويضه إليهم في أوامره ونواهيه، يطاع الأحبار فيما يأمرون به وينهون عنه، ليس بصفتهم علماء يستنبطون التشريع والأحكام بأسلوب علمي من الكتاب والسنة، وإنما في أنفسهم وبشكل مستقل عن مصادر التشريع الإلهي مما يجعلهم في منزلة الربوبية الخاصة بالله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الشريف قال عدي بن حاتم: «ما كنا نعبدهم يارسول الله!! قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: هو ذاك».[2] ويشمل التشريع الحياة العامة والخاصة وليس الحياة الخاصة

١- التوبة: ٣١

٢- تفسير الكشاف، الزمخشري، جزء ١، صفحة ٣٧١

(الأحوال الشخصية) كما يريد العلمانيون، قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1]، أي: إذا قيل لهم لا إله معبود ولا شرع يطاع فيما يأمر به وينهى عنه إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالتوحيد والآخرة، وانقضت صدورهم ونفرت نفوسهم، ويكرهون ذلك أشد الكراهية، وتمتلئ قلوبهم همّاً وغمّاً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في وجوهم، كما هو حال العلمانيين الذين يعارضون تلصيق التشريع الإلهي في الحياة العامة؛ لأنهم ليسوا من أهل التوحيد والمنظق السليم.

وفي المقابل: إذا ذكر الشركاء من دون الله سبحانه وتعالى في العبادة والطاعة من الأصنام والمشرعين المزعومين ونحوهم، استبشروا بذلك وفرجوا وابتهجوا به وامتلأت قلوبهم سروراً حتى يظهر الانبساط في وجوههم، وذلك لفرط حبهم وميلهم وافتتانهم بذلك، لكونه موافقاً لأهوائهم والمصالح الدنيوية العاجلة بزعمهم، مما يدل على الجهل الغليظ والحماقة الشديدة، وضعف المنطق؛ لأن في خيارهم إيمان بما ينبغي الكفر به، والكفر بما ينبغي الإيمان به، وقبول بما هو شر وفساد وطريق إلى الذل والهلاك والشقاء، ورفض لما هو خير صلاح وطريق إلى العزة والكرامة والنجاة والسعادة، إذ

١- الزمر: ٤٥

إن التوحيد هو وحده رأس السعادات وعنوان الخيرات، والشرك هو رأس الشقاء وعنوان الجهالات والحماقات والشرور، وهذه الحال القبيحة من شر الحالات وأشنعها في واقع المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر، وهي مصداق لقول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1].

ومن الآيات الدالة على توحيد الربوبية في الشريع والتنديد بمخالفته، قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[2]، أي: إذا دَعَى إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العمل له ونهى عن الشرك به العبادة والطاعة في التشريع، لم تقبلوا دعوة الداعي إلى التوحيد، واخترتم الكفر وتركتم التوحيد، وإن يشرك به غيره في العبادة والتشريع تؤمنون بالاشتراك وتجيبوا الداعي المنحرف عن الحق وعن الصراط المستقيم والنهج القويم والاعتدال والطريقة الوسطى إلى ما دعاكم إليه من الشرك بالله في العبادة والتشريع والحق بمقتضى الفطرة والعقل والمنطق، أن الحكم هو لله وحده لا شريك له، وهو المتعالي المطلق

١- الأعراف: ١٤٦

٢- غافر: ١٢

مـن جميع الجهات فـي ذاته وصفاته وأفعالـه، المنزه عن نقص وعيـب وآفـة، ولـه القهـر والغلبـة علـى جميـع عبـاده، ولا أحـد يستطيع أن يخرج عن دائرة حكمه و إرادته وسلطانه، وهو الكبير عن أن يكون له ند أو مثيل أو شـريك سـبحانه وتعالى، وفي الآية إشـارة وتهديد واضح بأن من كان هذا حاله، فهو مسـتحق لأشد العذاب في يوم القيامة.

وقـد أشـار القـرآن الكريـم إلى ثلاث حـالات للحكـم بغير ما أنزل الله ﷻ وهي:

أ. قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ب. قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

ج. قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

ووجـه الجميع بيـن الحالات الثلاث: أن صفة الكفر لمن لم يحكم بما أنزل الله سـبحانه وتعالى معتقداً بعدم وجوب الرجوع

١- المائدة: ٤٤

٢- المائدة: ٤٧

٣- المائدة: ٤٥

إلى الله سبحانه وتعالى في الحكم والتشريع، وفوض أمر الحكم والتشريع إلى غيره بشكل تام مستقل عنه.

وأما صفة الفسق فهي لمن لم يحكم بما أنزل الله مع اعتقاده بوجوب الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في الحكم والتشريع وانحصار ذلك الحق له وحده لا شريك له، ولكنه خالف ذلك عصياناً منه.

وأما صفة الظلم فهي لازم مشترك لكل من لم يحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى من الكافرين والفاسقين؛ لأن في ذلك ظلم للنفس من جهة أنه معصية لله سبحانه وتعالى؛ ولأن العدل بين الناس لا يتحقق بالحكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى؛ فالظلم لازم للحكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى، وأن لا نجاة ولا سعة ولا خير ولا صلاح ولا سعادة ولا كمال إلا بالحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وأن مخالفته تؤدي حتماً إلى الضيق والفساد والشقاء والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة.

خصوصية اسم الرب: لهذا الاسم العظيم (الرب) منزلة عظيمة ومميزات وخصائص من بين أسماء الله الحسنى، منها:

أ. إن اسم الرب العظيم من أمهات الأسماء الحسنى المقدسة، حيث تنضوي فيه العديد من الأسماء الحسنى المقدسة، مثل: الخالق والمالك والعليم

والقدير ونحوها، إذ تتفاوت الأسماء الحسنى في سعتها وشمولها، ويعتبر اسم الله هو أشمل الأسماء وأكثرها سعة على الإطلاق فهو الاسم الوحيد الجامع لبقية الأسماء ولكل الكمالات ولكل صفات الجمال وصفات الجلال، قول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]، وبناءً عليه: اختير لإعلان الإيمان بالتوحيد بشهادة لا إله إلا الله، واسم الرب العظيم، وهو مظهر الرحمة الواسعة الجامعة والدال على تربية جمع الموجودات وإيصالها إلى كمالها اللائق بها والمقدر لها وإلى سعادتها الحقيقية الكاملة، وذلك وفق الحكمة الكاملة البالغة المتعالية، وعلى النظام الأحسن والأكمل، مما يعني أن المعرفة بهذا الاسم العظيم الشريف المبارك (الرب) هو الطريق الأفضل للمعرفة الإلهية ويوفر للعارف المعرفة الواسعة العميقة بالحق جل جلاله.

ب. لوحظ أن جميع أدعية الأنبياء الكرام عليهم السلام التي ذكرت

١- الحشر: ٢٣-٢٤

في القرآن الكريم، تبدأ باسم الرب، وسرّ ذلك بحسب الظاهر: أن التعلق بهذا الاسم العظيم، يظهر حالة من المعرفة والانقطاع لله سبحانه وتعالى والتوكل عليه والثقة به، أكثر من غيره من الأسماء الحسنى؛ فالمعرفة به تؤدي إلى التسليم المطلق لله سبحانه وتعالى في جميع الأمور والشؤون والقضايا والظروف والأحوال، فلا ينفرد العارف في شأن من شؤونه الخاصة والعامة عن رب الأرباب ومسبب الأسباب، ويتوكل عليه ويثق به ويستمد منه العون والمدد والقوة والثبات والصمود والمقاومة، فلا يخضع لطاغوت أو فرعون أو مترف أو انتهازي أو صاحب مال وثروة أو صاحب جاه أو منزلة أو نحو ذلك، بل يتبع الحق ويخلص له، ويعمل التكليف وينهض بالواجب والمسؤولية الخاصة والعامة في جميع الظروف والأحوال، ويتحمل جميع التبعات والتضحيات من نفسه وماله وأهله، بنفسٍ راضية مطمئنة واثقة بوعد الله سبحانه وتعالى وبما عنده من الأجر والثواب، مستغنياً به عمن سواه من الموجودات التي تفتقر في وجودها وصفاتها وأفعالها وبقائها إليه.

ج. إن المعرفة بهذا الاسم العظيم الشريف المبارك، تؤسس

لتوحيد العبادة والطاعة في التشريع والحاكمية وغيرها، وتؤثر في تربية الإنسان العارف لنفسه وتطهيرها من الذنوب والمعاصي والآثام والجرائم والجنايات وتزكيتها بإصلاحها في داخلها وسريرتها وسلوك طريق العشق والمحبة لرب الأرباب الجامع لكل الكمالات ولكل صفات الجمال وصفات الجلال ويصبغ حياته كلها بصبغة التوحيد والعدل والفضيلة والمعرفة، وتؤسس لقيام حضارة إنسانية متوازنة ومتميزة وراقية جداً، تعتمد على المعارف الإلهية الحقة والأخلاق السماوية الفاضلة والتشريعات الربانية السمحة المستقيمة التي تقوم على الاعتدال والوسطية وتوافق فطرة الإنسان وتكوينه وتلبي جميع احتياجاته المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، وتتجسد فيها (في الحضارة) حقيقة الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض وتحقق غايتها، وتقود المعرفة باسم الرب العظيم الإنسان إلى أقصى درجات الكمال الإنساني الممكن المقدر له واللائق به المعرفي والتربوي والحضاري وتحقيق السعادة الحقيقية الكاملة للإنسان في الدارين الدنيا والآخرة، والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي الذي لازوال له ولا اضمحلال في الآخرة.

مقدمات ذات صلة بالموضوع

أولاً: أهمية معرفة النفس

حينما يصف الإنسان أمراً ما بأنه مهم، فهذا يعني أنه يرى فيه بأنه من المطالب العالية التي تدعو إلى الاهتمام به واليقظة وحسن التدبير، مصحوباً بالقلق والخوف من فوته وضياعه، ونفي أن يكون من الأمور الحقيرة أو التافهة أو العادية، ويكشف عن تصور ما فيه من الخير وما يحققه من الأغراض والأهداف الكبيرة والأساسية، وما يشبع من الحاجات المادية والمعنوية الدنيوية والأخروية، وما يؤدي إليه تفويته من الخيبة والخسران، وأنه يحتاج إلى اتخاذ قرارات حاسمة لاتقبل التردد والتأخير عن وقتها المناسب أو تقديمها أو التراخي.

والحقيقة أنه مهما تفاوتت الأغراض والأهداف والحاجات لدى الأشخاص فإن الغاية الرئيسية الجامعة التي يسعى إليها جميع الأشخاص من وراء أفعالهم وتصرفاتهم ومواقفهم وأقوالهم هو الوصول إلى الكمال وتحصيل السعادة الحقيقية الفعلية أو التي يعتقد أنها السعادة الحقيقة، وإن لم تكن الحقيقة فعلاً.

وعليه: فإن الأمور المهمة والجادة حقيقة في حياة الإنسان، هي الأمور التي تحقق له السعادة والكمال، وهما -السعادة والكمال- متلازمين، فتحقيق السعادة لا يحصل إلا ببلوغ

الكمـال، فتكون السـعادة تامة بتمام الكمـال، وناقصة بنقصان الكمال، وهما لا ينفصلان ولايسـتقلان عن الفطرة وأصل الخلقة والتكويـن، أي: يجـب أن تتوافـق السـعادة الحقيقيـة والكمـال الحقيقي مع الفطرة وأصل الخلقة وتكوين الإنسان من جوهرين الجسـد والـروح، ولا يوصـف أي حـال بالسـعادة والكمـال مـع مخالفتـه للفطـرة وأصل الخلقـة والتكوين، فلا يقال لإنسـان أنه سـعيد؛ لأنـه امتلـك المـال والثـروة والسـلطة بغيـر حـق أو نحـو ذلك، وهذا يعني أن الحديث عن أهمية معرفة النفس هو عينه الحديـث عن السـبيل للوصول إلى الكمال وتحصيل السـعادة الحقيقية الفعلية للإنسان في الدارين الدنيا والآخرة.

ولأن الإنسـان يتميـز بالعقـل وحريـة الإرادة والاختيـار، فـإن كماله الحقيقي وسعادته الحقيقة، يتوقفان على معرفة الحقائق الثابتـة والسـنن والعمل بمقتضاها، فكلمـا ارتفع معدل المعرفة الحقـة ومعدل العمل بمقتضاهـا ارتفع معدل الكمال الحقيقي والسـعادة الحقيقيـة للإنسـان، وكلمـا انخفـض معـدل المعرفة الحقـة أو معـدل العمل بمقتضاها، انخفـض تبعاً لذلك معدل الكمال الحقيقي والسعادة الحقيقية لدى الإنسان.

ولمعرفة الإنسان ثلاثة محاور رئيسية، وهي:

أ. معرفة الإنسان بنفسه.

ب. معرفة الإنسان بالأشياء الخارجية المحيطة به.

ج. معرفة الإنسان بربه.

وتعتبر معرفة الإنسان بربه، هي المعرفة التي يتوقف عليها كمال الإنسان وسعادته الحقيقية في المقام الأول، وهي الغاية القصوى التي يسعى إليها الإنسان، وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «معرفة الله سبحانه أعلى المعارف»[1] وذلك لأن الإنسان كائن مركب من جوهرين/ الروح والجسد، بالروح يناسب الأرواح الطيبة والملائكة المطهرين عليهم السلام ويميل إلى العالم الملكوتي العلوي عالم الروحانيين وهو عالم النور والطهارة والقداسة اللامحدود، وبالجسم يشابه السباع والبهائم في الغضب والشهوة، ويقيم على وجه الأرض ويسكن في عالم المادة والطبيعة.

ولأن الروح هي التي تمثل حقيقة الإنسان وجوهره وأساس وحدة كيانه وشخصيته، فإن العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، كلها تجمع على التالي:

أ. وجوب تغليب الجانب الروحاني على الجانب الجسماني دون إهمال الجانب الجسماني أو التقصير في متطلباته وإشباع حاجاته الضرورية والأساسية،

١- غرر الحكم: ٩٨٦٤

وهـذا مـن شـأنه أن يعلـي القيـم الروحيـة علـى القيـم المادية.

ب. أن يخضع الإنسان القوة الغضبية والقوة الشهوية لمنطق العقـل والدين الحنيف، وأن ينفض الإنسـان عن نفسـه كـدورات عالـم الطبيعـة والشـهوة واللـذات الحسـية، ويتخلـص مـن حجـاب المادة ومـن الأهواء والوسـاوس الشـيطانية والأوهـام والخرافات، وأن يسـير بقدم صدق وإخـلاص وبخطى ثابتـة للاتصـال بعالـم الملكـوت الأعلـى، عالـم النور والطهارة والقداسـة والإقامـة الدائمة فيه ومصاحبة الأرواح الطيبة والملائكة المطهرين عليهم السلام.

وقـد ثبت بالتحقيـق وبما لا يدع مجالاً للشـك أو الريب بأن حيـاة الـروح وكمالهـا وسـعادتها إنمـا تتحقـق بالعلـم والمعرفـة بالحقائـق الكونيـة والأنفسـية والمعارف الإلهية الحقة والسـنن، وبسـلوك طريق العشـق والمحبة لله ذي الجلال والإكرام والأنس به وطاعته في جميع الأمور والشؤون الخاصة والعامة، والانقطاع إليه عن كل شـيء وعدم الاسـتقلال عنه في شيء أو في أمر من الأمور أو في شأن من الشؤون، وترك معصيته والتحلي بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة وفعل الخيرات والأعمال الصالحة وكل مـا يحتاجـه للوصـول إلـى كماله المقـدر له واللائـق به، ولا يفعـل إلا مـا أراد الله سـبحانه وتعالى منه ولا يتعـرض إلا لما يقربه

منه، ولا يخالفه في شيء أو في أمر شأن عام أو خاص بمتابعة الأهواء والوساوس الشيطانية أو الأوهام والخرافات والخيالات الباطلة، أو بالاستغراق في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة والنفس الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم، ولا يلتفت إلى شيء يعوقه في سيره نحو كماله وسعادته، وكل مخالفة لشيء مما سبق فهي نافذة إلى الشقاء وخطوة نحو الوراء والنقص، تتسع أو تضيق بمقدار المخالفة، وعليه: فإن المعرفة بالنفس والمعرفة بالأشياء الخارجية المحيطة، ما هي في الحقيقة إلا مجرد وسيلة لمعرفة الإنسان بربه وسلوك طريق العشق والمحبة والطاعة إليه.

وقد بيّنت الآيات القرآنية المباركة والأحاديث الشريفة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام أهمية المعرفتين: المعرفة بالآيات الآفاقية، والمعرفة بالآيات الأنفسية لمعرفة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

ولاشك في أهمية المعرفة بالآيات الآفاقية لمعرفة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، فهي توصل الإنسان إلى المعرفة اليقينية

١- فصلت: ٥٣

بوجود الله سبحانه وتعالى والمعرفة بأسمائه الحسنى وأفعاله وكمالاته، مما يهدي الإنسان العاقل الباحث عن الحقيقة وبحسب الفطرة والطبع السليم إلى التمسك بالدين الإلهي الحق والصراط المستقيم والنهج القويم والاعتدال والطريقة الوسطى والعمل بالشريعة الإلهية المقدسة في جميع الشؤون الخاصة والعامة، وفي جميع الظروف والأحوال، ويحمل الإنسان على مجاهدة النفس وتهذيبها وتقويمها وتحريرها من الأهواء والوساوس الشيطانية والأوهام والخرافات والخيالات الباطلة ونحوها، ومن الشهوات الحيوانية ومن الاستغراق في عالم الدنيا والمادة وفي المصالح العاجلة الفانية واللذات الحسية ونحو ذلك، والسعي إلى تطهير النفس من الذنوب والمعاصي والآثام والجرائم والجنايات، ومن الرذائل والخصال السيئة والصفات القبيحة، وتزكية النفس وتخليصها من حجاب المادة، وتكميلها بالمعارف الإلهية الحقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وسلوك طريق العشق والمحبة والطاعة لله ذي الجلال والإكرام والانقطاع إليه عن كل شيء، والسير إليه بقدم صدق وبخطى ثابتة وطاعته وعبادته والتخلق بأخلاقة واكتساب صفات كماله، حتى البلوغ إلى الغاية القصوى والمرتبة العليا وهي الفناء فيه والبقاء به.

إلا أن المعرفة بالآيات الأنفسية هي أنفع للمعرفة بالله سبحانه

وتعالى من المعرفة بالآيات الآفاقية، بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين»[1]، أي: أن المعرفة بالآيات الأنفسية أنفع من المعرفة بالآيات الآفاقية للمعرفة الإنسان بربه سبحانه وتعالى وسلوك طريق العشق والطاعة لله ذي الجلال والإكرام، وذلك لأن معرفة النفس تتصل بصورة مباشرة بإصلاح النفس، حيث يعرف الإنسان ما يعرض للنفس من الاعتدال في أمرها أو الطغيان، وما يعرض لها من الأحوال الحسنة أو السيئة، كما يعرف خصائصها وقدراتها وطاقتها و إمكانياتها ومواهبها واستعداداتها، ثم يعمل على إصلاحها برفق وعن علم ومعرفة، ويتسنى له تربيتها وتزكيتها وتقويمها وتقويتها، ويعرف المضار والمنافع المادية والروحية للنفس، ومعرفة الأعداء والأصدقاء لها ليسعى مع الأصدقاء الروحانيين لجلب المنافع الحقيقية لها والوصول بها إلى كمالها الحقيقي اللائق بها والمقدر لها، ويتحقق سعادتها الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، والحرص على تجنب المضار والحذر الشديد مع اليقظة من الأعداء الروحانيين، مثل: الهوى والشيطان والطاغوت والجهل، وذلك كلها من أجل النجاة من الشقاء الحقيقي ومن الهلاك في الدارين الدنيا والآخرة.

١- غرر الحكم، ١٦٧٥

كما يعرف شرف النفس وكرامتها فيأبى إذلالها باتباع الأهواء والوساوس الشيطانية والأوهام والخرافات والخيالات الباطلة، أو الخضوع إلى الرغبات والغرائز والميول والشهوات الحيوانية والاستغراق في اللذات الحسية والمصالح الدنيوية العاجلة الفانية، أو اتباع الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والمترفين الفاسدين والنفعيين والانتهازيين المارقين الجامحة الجهلاء، ويشتغل بدلاً من ذلك بتطهير نفسه وتزكيتها وتكميلها بالمعارف الإلهية الحقة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، والتحليق بها في سماء الفضيلة للوصول إلى عالم الملكوت الأعلى، عالم النور والطهارة والفضيلة والقداسة والكمال اللامحدود والإقامة فيه في محضر الأنس والقرب مع مصاحبة الأرواح الطيبة والملائكة المطهرين عليهم السلام بالإضافة إلى ما تتميز به معرفة النفس من الخصائص التي تقربها من المعرفة برب العالمين بشكل أفضل، كما سيأتي في شرح الحديث الشريف موضوع البحث بعد قليل.

وفي المقابل: تتصل معرفة الآيات الآفاقية بإصلاح النفس وأعمالها بصورة غير مباشرة، والمعرفة بالله سبحانه وتعالى وبصفاته وأسمائه الحسنى وأفعاله، وكمالاته عن طريق الاستقلال والبرهان، أي: المعرفة بالله سبحانه وتعالى بطريق غير مباشر، مما يجعل المعرفة بالآيات الأنفسية أنفع من

المعرفة بالآيات الآفاقية.

أمور مهمة تترتب على المعرفة بالنفس

كما تترتب على المعرفة بالنفس العديد من الأمور المهمة، منها:

أ. معرفة عظمة الصنع من خلال الوقوف على عجائب الخلقة في النفس وأسرارها، ومعرفة صفات كمال الصانع، صفات الجمال وصفات الجلال، وعلى غناه المطلق واقتصار النفس إليه في وجودها وبقائها وصفاتها وأفعالها، أي: أن وجودها موصول بوجوده وإفاضاته مطلقاً، وأنها غير مستقلة عنه في أي شيء من شؤونها وأحوالها وصفاتها وأفعالها، ولا بأي حال من الأحوال، وأن صلاحها وكمالها وخيرها وسعادتها موصول بسلوك طريق عشقه ومحبته وطاعته المطلقة في جميع ما يأمر به وما ينهى عنه، وأن كل معصية له هي نافذة إلى الشقاء والنقص والهلاك، فهو وحده لا شريك له مصدر لكل كمالاتها وسعادتها، وما يمكن أن تتحلى به من الفضائل والخصال الحميدة وصفات الكمال، وما توفق إليه من الخير والصلاح والأعمال الصالحة، مما يهدي الإنسان إلى تكليفه الشرعي في الحياة، وإلى التمسك بالدين الإلهي الحق والصراط

المستقيم والنهج القويم والاعتدال والطريقة الوسطى، وإلى اتباع أئمة الحق والهدى والبراءة من الطواغيت وأئمة الضلال والجور، ويكون عمله وسلوكه ومواقفه وتحمله للمسؤليات الخاصة والعامة كلها مبنية على ضوء هدى رب العالمين وأساسه المتين، وتعبير عن حب الإنسان لله رب العالمين ذي الجلال والإكرام والمنّ والإحسان والخشية منه، وبهدف الوصول إلى قربه والفوز برضوانه والزلفى لدية.

ب. معرفة المعاد والسير الاضطراري إلى الله ﷻ من أجل الحساب والجزاء، قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[1]، أي: يا أيها الإنسان الذي كرمك الله تبارك وتعالى وشرفك وفضلك على سائر مخلوقاته وميّزك بالعقل والإرادة وحرية الاختيار، إنك تسعى وتتعب وتجهد نفسك في العمل والكد، وتعاني المشاكل وتواجه الصعوبات والتحديات والعوائق والموانع في حياتك من أجل امتحانك وتفعيل استعداداتك وإمكانياتك، وتظهر كما أنت على حقيقتك وستظل جاهداً طوال عمرك إلى أن تموت فتلاقي ربك حتماً لا مفر لك من ذلك ولا مهرب،

١- الانشقاق: ٦

فسيحاسبك ويجازيك على كل أعمالك كما هي عليه في يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وذلك لأن الإنسان إذا عرف حقيقة نفسه فإنه سيعلم علم اليقين بأنه لم يخلق عبثاً، وإنما خلق بمقتضى الحكمة العليا البالغة لغاية كريمة رفيعة، فإن كان التعب في الحياة على كل حال، وأن لقاء الله ﷻ واقع لا محالة فإنه بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم أن يختار الإنسان الطاعة على المعصية، والنعيم الباقي على المتاع الفاني، والسعادة على الشقاء.

ج. معرفة الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام وهم أئمة الحق والهدى والرشاد؛ لأنهم الطريق الوحيد إلى معرفة الله ذي الجلال والإكرام الكاملة وطاعته والفوز برضوانه والزلفى لديه، وإلى حفظ مصالح الإنسان وصلاحه وصيانة حقوقه وكرامته في الحياة وإيصاله إلى كماله وتحقيق غاية وجوده، ولا يمكن للإنسان أن يحقق أي شيء من ذلك بدون هذه المعرفة للأنبياء والأوصياء عليهم السلام والإيمان بهم وطاعتهم واتباعهم والاقتداء بهم.

د. معرفة أن الإنسان اجتماعي بالطبع، وأنه كلما تحققت القيم الإنسانية الروحية العليا أكثر في الناس، كلما

كان كمالهم الإنساني أتم وأعظم، وساد بينهم التعاون والتراحم والتكاتف والتعاطف والتناصر على الحق وإجلال الحالة المجتمعية والحضارية والسعي لإقامة علاقات إنسانية متينة وراقية على كافة المستويات الأسرية والمجتمعية والوطنية والإقليمية والدولية، تقوم على قواعد واقعية ومضامين فكرية وروحية وأخلاقية حقيقية، وتوافق العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم وتحافظ على كرامة الإنسان وحريته وتصون حقوقه ومصالحه الحقيقية في الحياة، لا سيما في دورة الحياة الكاملة مما يشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه أبناء جنسه ويدفعه إلى تحملها والتضحية من أجلها؛ لأنه يدرك بأنها جزء من مسؤوليته تجاه نفسه ومصيره في الدارين الدنيا والآخرة، فيكون ألمه تجاه الآخرين هو ألم باطني يعبر عن الشعور بحاجة فطرية كامنة في أعماق نفسه وفطرته، أي ألم الحب والذوبان في الحقيقة، أكثر منه ألم العلم والمعرفة بالحقيقة والواقع، وتكون غايته الصعود بنفسه ومجتمعه والناس أجمعين إلى الله ذي الجلال والإكرام، والتخلق بأخلاقه وتجسيد صفات كماله، صفات الجمال مثل: العلم والرحمة، وصفات الجلال، مثل: القهر والغلبة في واقع الحياة الفكرية

والتربوية والحضارية عن طريق التمسك بالدين الإلهي الحق والصراط المستقيم والنهج القويم والاعتدال والطريقة الوسطى واتباع أئمة الحق عليهم السلام والاقتداء بهم والبراءة من أئمة الجور والضلال ومقاومتهم، والسعي لتطبيق الشريعة الإلهية المقدسة في جميع الشؤون الخاصة والعامة، ولإقامة القسط والعدل بين الناس والنهوض بالمجتمع على كافة الأصعدة السياسة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحفظ الحقوق والحريات والقيم الإنسانية العليا ومحاربة الفساد والتحلل والتخلف والانحطاط على ضوء هدي النبوة والإمامة الشرعية، وإيقاظ الهمم وتوظيف كافة الطاقات وتنمية الاستعدادات والمواهب والقابليات في الأفراد والمجتمع والدولة وإخراجها تدريجيًا من طور القوة والكمون إلى طور الفعلية والظهور، وإشعال نار العشق والمحبة الكامنة في أعماق نفوس الناس وفطرتهم، كل ذلك لإيجاد عالم جديد وحضارة إنسانية راقية ومميزة تقوم على التوازن الدنيوي والأخروي، ولا تغفل أو تتجاهل شيء من ذلك وتتجسد فيها حقيقة الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض.

نتائج مهمة: ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

أ. إن معرفة الإنسان بنفسه تعتبر مسألة حيوية وجوهرية ومصيرية وفي غاية الأهمية بالنسبة إلى الإنسان، وتصل أهميته إلى درجة الضرورة القصوى، وتترتب على الجهل بها والغفلة عنها أو تجاهلها نتائج وخيمة جداً على واقع الإنسان ومستقبله، منها: غفلته عن ربه سبحانه وتعالى وعن معاده، وجهله بقيمة الحياة بالطريقة المثلى وغاية وجوده في الحياة مما يشعره بالضياع والغربة والعبثية والحقارة والتفاهة والدناءة إذا لا يتوفر لديه هدف حقيقي واضح ولا غاية واقعية فعلية في الحياة، لذلك وصل إلى الشعور بالضعف أمام الأخطار والصعوبات والعقبات والتحديات، وعن السيطرة على أهوائه ورغباته ونزواته وشهواته، وتنخفض لديه الحالة الروحية والقيّمية، ويضغف إحساسه بالمسؤولية العامة والخاصة، ويتصف بالأنانية والقسوة والوحشية والشراسة ونحوها ويكون مقياس عملة الربح والخسارة الشخصية المادية، مثل: المال، والمعنوية، مثل: الشهرة، ويفشل في توجيه نفسه وحسن تدبيرها وقد يدخل في مغامرات ويضحى بنفسه من أجل أهداف وغايات تافهة لأنه لايعرف قيمة نفسه ولا الطريقة المثلى في الحياة ولايمتلك الموازين والمعايير الصحيحة،

ويبقى على هذه الحالة حتى ينتهي به المطاف إلى الشقاء الحقيقي والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة وعليه لا تستقيم حياة الإنسان ولا يصل إلى كماله الممكن المقدر له واللائق به وتحقيق الراحة النفسية والسعادة الحقيقية له إلا بمعرفة حقيقة نفسه وتقويمها وتهذيبها وسلوك طريق التوحيد والعشق والمحبة والطاعة لله ذي الجلال والإكرام وحده لا شريك له.

ب. إن جهل الإنسان بحقيقة نفسه هو منشأ الفلسفات المادية والإلحادية والعبثية والتشاؤمية ونحوها، والمسؤول عن انخفاض مستوى القيم والاخلاق والشعور بالمسؤولية الخاصة والعامة، والالتزام بالشريعة الإلهية المقدسة، ويخلق البيئة الخصبة للشيطان الرجيم ويمكّن النفس الأمارة بالسوء من الانجرار وراء الأهواء والوساوس الشيطانية والأوهام والخرافات والخيالات الباطلة والخضوع للشهوات الحيوانية والملذات الحسية ويؤدي إلى الانحلال والانحطاط ونشر الفساد وتمكين الظلم والجور والطغيان ونشوب الحروب والصراعات الدامية والتنافس غير الشريف ونشر الخراب والدمار على وجه الأرض ونحو ذلك.

ج. يجب على الإنسان أن يكوّن لنفسه رؤية واضحة سديدة

عن نفسه تقوم على الحقائق وتعتمد البرهان الصحيح وأن يضع لنفسه على ضوئها استراتيجية عمل شاملة وثابته لتدبير صيانة شؤونه وهذه حاجة ضرورية وخطوة لابدية في طريق السلوك إلى الله ذي الجلال والكرام وإلى إصلاح النفس والتكامل التربوي للأشخاص الفكري والروحي والنفسي والأخلاقي، وإلى إصلاح المجتمع والتكامل الحضاري العلمي والتكنولوجي والصناعي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

ثانياً: تفاوت المعرفة بالنفس

المعرفة بالنفس ليست على درجة واحدة عند جميع الناس وعند جميع الموحدين، بل تتفاوت درجات ومراتب تكامل الأشخاص فكرياً وروحياً وأخلاقياً وسلوكياً. فهذا التفاوت يؤثر بالطبع وبحسب المنطق في الفهم والوعي والاستقامة وله انعكاسات وجودية على صفاء القلب وطهارة الروح وتزكية النفس ومقاماتها ومراتبها؛ ولأن الله تبارك وتعالى يتعرف لكل أحد من خلقه بقدر قابلياته واستعداداته الروحية، وبحسب منطقه وقوة إدراكه التي هي بدورها لها انعكاسات لصفاء

القلب ولطهـارة الروح وتزكية النفس، فيعرفه كل واحد من خلقه ويوحـده بمـا يظهر لـه على لـوح الحقيقة وصفحة نفسـه، وربما تعرف إلى عبده بنفسه (معرفة الله بالله) كما هو الحال في معرفة أهل الشـهود والمكاشـفة والفنـاء بالله ذي الجـلال والإكرام التي هـي أكمـل المعرفة بالله سـبحانه وتعالـى؛ لأن المعرفة بالشـهود القلبي والمكاشـفة هي السـبيل إلى معرفة حقائـق الوجود على ما هي عليه بصورة مباشـرة، وهي معرفة حضورية يقينية لا تقبل الشـك أو الخطأ، وتحصل عن طريق التطهير من دنس الذنوب والمعاصـي والآثـام والخطايـا والجرائـم والجنايـات وتخليصهـا مـن كدارة عالم المـادة والطبيعة، و إزالة حجابهـا عنها وصقلها بالمعـارف الإلهيـة الحقة والذكر والعبـادات وصنوف الطاعات ونحوها.

وليس لكل واحد أن يدعي لنفسه هذه المعرفة، فهي خاصة بالأوليـاء الصالحيـن دون سـواهم، ولمن يحظى بهـذا النوع من المعرفة علامات ونور، وهم درجات ومراتب متفاوتة في أنفسـهم وعند ربهم، قول الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]، أي: إن المؤمنيـن الصالحين المتبعين لرضوان الله تبارك وتعالى يسـعون بصدق و إخلاص لنيل المقامات العالية والمنـازل والدرجـات الرفيعـة بأعمالهم الصالحـة وكدحهم في

١- آل عمران: ١٦٣

ذات الله سبحانه وتعالى، فيعطيهم الله تبارك وتعالى من فضله وجوده وكرمه على قدر علمهم وصدقهم وإخلاصهم وكدحهم وأعمالهم، فهم متفاوتون في مقاماتهم ومراتبهم ودرجاتهم، وليسوا متساوين ولا يعلم أحد خصوصيات ذلك وجهاته إلا الله ﷻ؛ لأنها لا تحد بحد من الكمال والجمال والكبرياء والعظمة والجلال، والله سبحانه وتعالى بصير بهم وبنياتهم وبأعمالهم ومقاماتهم ومراتبهم ودرجاتهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو ينعم عليهم في الدنيا وسوف يجازيهم في الآخرة جزاءً موافقاً لحقيقة أنفسهم ونياتهم وأعمالهم، وكما هي عليه في الواقع، وهذا يدل على أن نيل هذه الدرجات والمقامات والوصول إليها لا يكون بالتمني وإنما بالعلم والعمل، وعليه يجب على المتلقي التأكد من صدق كل من يدعي لنفسه أو لغيره هذا النوع من المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، قبل القبول بالإدعاء أو رفضه والترتيب عليه، قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «لكل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً»[1].

ولما كانت نفس الرسول الأعظم الأكرم ﷺ أصفى النفوس وأطهرها وأزكاها وفي أعلى مراتب الاعتدال والوسطية والاستقامة والكمال، ولأن المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام تكون دائماً وأبداً بمقدار القابلية والاستعداد الذهني والروحي، فإن الرسول

١- الكافي، جزء ١، صفحة ٦٩

الأعظم الأكرم ﷺ هو الأكثر قابلية لأكمل معرفة بالله ذي الجلال والإكرام على الإطلاق ولا يجاريه في ذلك سوى الأئمة المطهرين من أهل بيته عليهم السلام، وفي الحديث النبوي الشريف، قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ مخاطباً علي بن أبي طالب عليه السلام: «ماعرف الله إلا أنا وأنت»[1] أي ما عرف الله ذا الجلال والإكرام المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين إلا أنا وأنت يا علي!

أضواء قرانية

قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وتتضمن الآيات الشريفة المباركة النقاط الرئيسية التالية:

أ. إن المعرفة بحقيقة الذات الإلهية المقدسة غير ممكنة (ممتنعة) للعقل البشري ولأي عقل مخلوق آخر؛ لأن الذات الإلهية المقدسة مطلقة (غير محدودة وغير متناهية)، والعقل المخلوق محدود ومتناهي، ويستحيل أن يحيط المحدود المتناهي بالمطلق غير المتناهي.

١- مشارق أنوار اليقين، البرنسي، صفحة ١٣٥

٢- الصافات: ١٨٠-١٨٢

ب. يجب تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل ما يصفه به المشركون والضالون وينسبونه إليه مما لا يليق بجانبه الشريف وبساحة قدسه، مثل: اتخاد الأولاد والبنات والتجسيم والشركاء في العبادة والطاعة والتشريع ونحو ذلك، وعن كل وصف يصفه به عامة الناس.

ج. سلام عظيم وتحية وأمان على المرسلين الكرام عليهم السلام الذين أخلصهم لنفسه ودينه وأنساهم غيره، وأدوا التكليف والأمانة بصدق وإخلاص وتحملوا في سبيل ذلك الأذى الشديد وقدموا التضحيات الجسيمة، ولسلامتهم من الذنوب والمعاصي والأثام والخطايا والجرائم والآفات الفكرية والروحية والأخلاقية والنفسية والسلوكية، وهم مستثنون وغير مآخذين ولا معاقبين على ما يصفون به الله رب العالمين من الصفات، بل مسموح لهم ومأمورون وغير منهيين عن وصفهم لله رب العالمين سبحانه وتعالى؛ لأنهم يصفونه بما يليق بجنابه الشريف وبساحة قدسة وكبريائه عن علم ومعرفة ودراية، وبما تعرف هو إليهم وظهر لهم من نفسه على صفحة قلوبهم مع اعترافهم بقصور البيان من غير تقصير، منهم قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي

نعماءه العادون ولا يؤدي حقه المجتهدون الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل ممدود»[1]، وعليه فجميع الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام على تفاوت مراتبهم ودرجاتهم يحملون المعرفة الحقيقية العالية الكاملة اليقينية الممكنة في حق المخلوقين لله رب العالمين ويصفونه بما يليق بجنابه الشريف وبساحة قدسة وكبريائه من أوصاف الكمال ويشاركهم في تلك المعرفة والتوصيف عباد الله المخلصين وأولياءه المطهرين عليهم السلام الخالصون من كل أشكال الشرك والضلال والجهل والمعصية واتباع الهوى ونحوه، قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

د. الحمد المطلق والثناء الدائم الذي لا ينقطع ولا ينتهي لله رب العالمين المدبّر وحده للعالم والمنعم المتفضل على جميع خلقه، الجامع لكل الكمالات، المنزّه عن كل عيب ونقص وآفة. المحبوب المعظم، غاية الطالبين الذي تعرف لعباده المرسلين ولأوليائه المطهرين عليهم السلام

١- نهج البلاغة، الخطبة: ١

٢- الصافات: ١٥٩-١٦٠

ولعشاقه المجاهدين، وأفاض عليهم وعلى اتباعهم المهتدين من نعمه السابغة وأنواره البهية ورحمته الواسعة، ومنحهم المعرفة الحقيقية العالية الكاملة اليقينية الممكنة في حق المخلوقين له، وحملهم رسالته ودينه وأمانته، وبعثهم هداة مبشرين ومنذرين للناس أجمعين من أجل نجاتهم من الشقاء الحقيقي والهلاك الفعلي والخسران وإيصالهم إلى كمالهم اللائق بهم والمقدر لهم، وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة لهم في الدارين الدنيا والآخرة والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي المقيم.

وما سبق يدل على وجوب التعرف على الله ذي الجلال والإكرام ووصفه عن علم ومعرفة ودراية، وتجنب الأوهام والخرافات والخيالات الباطلة والوساوس والأهواء الشيطانية في ذلك، وهذا يتطلب الصدق والإخلاص وتحري الحقيقة في البحث وتطهير النفس من الذنوب والمعاصي والخطايا والآثام وتزكيتها وتصفية القلب والتخلص من كدارة عالم المادة والطبيعة وحجابها، وإحكام المنطق والمنهج في البحث عن المعرفة والسعي إليها والرجوع إلى أئمة الهدى والحق، والأنبياء والرسل الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام، والأخذ منهم لمعرفة الدين الحق والتوحيد والشريعة.

ثالثاً: موانع معرفة النفس

مثلما أن الصدق والإخلاص وتطهير النفس وإحكام المنطق والمنهج تؤثر تأثيراً إيجابياً في معرفة النفس ومعرفة الله سبحانه وتعالى، فإن هناك عوامل تؤثر تأثيراً سلبياً وتحيل بين الإنسان وبين معرفة حقيقة نفسه، وهي عوامل كثيرة جداً ومتنوعة، فينبغي على الإنسان معرفتها والوقوف عليها والوعي بها لكي لا يقع تحت تأثيرها ويكون ضحية اللاوعي المظلم الأسود الذي يحيل بين الإنسان وبين معرفة حقيقة نفسه، ويكون فريسة الغربة والضياع والسير في طريق اللغو والعبثية والغوغائية والفوضى، الأمر الذي ينتهي به حتماً إلى النقص والانسلاخ من إنسانيته وإلى الشقاء الحقيقي الكامل والهلاك الفعلي والخسران في الدارين الدنيا والآخرة، وعندها لا يفيده شيء، لا علم دنيوي، ولا مال ولا جاه ولا ملك ولا سلطان ولا أي شيء آخر مثله، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[1]

١- الدخان: ٤٠-٤٩

والموانع أو العوامل التي تحيل بين الإنسان وبين معرفة حقيقة نفسه كثيرة جداً ومتنوعة، منها:

١. الغفلة عن الحقائق والسنن الثابتة وعن الصلة الوجودية الوثيقة التي لا تقبل الانفصام والانفصال والانقطاع بين الحقائق والسنن من جهة، وبين كمال الإنسان وصلاحه وخيره ومصلحته الحقيقية في دورة الحياة الكاملة وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة من جهة ثانية، وإعمال العقل فيما لا ينبغي له من الأمور الحقيرة والتافهة، مثل: الكيد والمكر والخداع والحيل والاشتغال بالسحر والطلمسات وجمع الاصطلاحات وتكثير البراهين ونحو ذلك، من أجل اللذة النفسية والنشوة والشعور بالتفوق والتميز العلمي والشخصي والظهور على الآخرين وغلبتهم وقهرهم علمياً ونفسياً ومادياً فيما لا خير فيه ولا منفعة حقيقية ترجى منه، ولا جدوى وراءه ولا غاية ولا هدف حقيقي له، ويسمى اللغو واللعب واللهو وترك التفكير فيما يصلح حال الإنسان والأفراد والمجتمع، وما فيه خيره وكماله وسعادته الحقيقية، وهذه الحال القبيحة هي العبثية بعينها لحقيقة كون الإنسان حيوان ناطق (عاقل مفكر)، ينبغي عليه أن يحكم العقل والمنطق والفكر

في كل صغير وكبير من سلوكه وتصرفاته التي تصدر منه بإرادته واختياره وهما: (الجهل والحمق) منشأ كل الأفكار الضالة والفلسفات والمذاهب الباطلة والسلوكيات والتصرفات المنحرفة الضارة في حياة الإنسان إذ يشلا حركة العقل والفكر والمنطق، ويميلا بالإنسان إلى الضلال والانحراف عن الحق والصراط المستقيم والنهج القويم والاعتدال والطريقة الوسطى، وعن الطاعة إلى المعصية وعن الجد والمسؤولية إلى الكسل والإهمال، وعن أئمة الحق والهدى عليهم السلام إلى اتباع الطواغيت وأئمة الجور والضلال، ويجعلا الإنسان يتخبط يميناً وشمالاً في ظلمات الحياة ومتاهاتها المتعرجة وحيرتها ونحو ذلك، فلا يدري أين هو، ولا من أين، ولا إلى أين، ولا يعرف طريقه الذي يؤدي به إلى النجاة والسعادة، ولا يهتدي إلى خير أو صلاح أو رشاد، وقد يحسب لفرط جهله وحمقه وضلاله أنه على خير وهدى وأنه يحسن صنعاً، قول الله تعالى: ﴿اِعْلَمُوٓا اَنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهٗ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰىهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْاٰخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَآ اِلَّا مَتَاعُ

الْغُرُورِ﴾[1]، أي اعلموا أيها الناس أن الحياة الدنيا التي تعولون عليها كل التعويل وتوقفون عليها جميع أوقاتكم واهتمامكم وتوظفون من أجلها كل قواكم وإمكانياتكم ومواهبكم واستعداداتكم، وتشغلكم بسبب ما جعل فيها من الزينة والجمال واللذات والشهوات عن الآخرة الحياة الطيبة الكاملة الباقية الخالصة التي تمثل حقيقة ثابتة قاطعة، ما هي لو نظر إليها بعين الجد والبصيرة وبحسب الحقيقة والواقع وفي أحسن الأحوال والظروف وأكثرها جدية ومسؤولية إلا كالحالات والأوصاف التالية:

أ. لعب كلعب الأطفال لا دوام له ولا اعتداد به، يتعب الناس فيه أنفسهم تعباً شديداً ولا هدف حقيقي له، يجتمعون عليه ويتولعون به ساعة، ثم سرعان ما يتفرقون عنه وذلك لأنها سريعة الفناء قليلة البقاء، وذهاب جميع ما كان يعمل من أجلها فلا يحصل منها محبها العامل من أجلها على طائل إلا على الندم والخسران، ولأنها لا تمثل هدفاً مقصوداً بذاتها، وتدور مدار سلسلة من العقائد الاعتبارية غير الواقعية والمقاصد الوهمية السرابية، مثل:

١- الحديد: ٢٠

الأمـوال والثـروة والسـلطة ونحوهـا، كمـا يـدور عليه اللعـب بدل الحقائـق الثابتـة والمقاصـد الواقعية، كما ينبغي أن يسـتند عليه سلوك الإنسان وتصرفاته فـي الحيـاة مـن أجـل الوصول إلـى كمالـه الممكن المقـدر لـه واللائـق بـه وتحقيـق سـعادته الحقيقـة الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

ب. لهـو عبثـي كلهـو السـفهاء، لا هـدف لـه ولا غايـة إطلاقاً سـوى العبـث ويزول عن قريـب، وذلك لأنها تلهي الإنسان وتشـغله بنفسها وزينتها وزخرفها عن الحيـاة الآخرة الجليلة الطيبة الكاملة الباقية، وعن السـعادة الحقيقة الكاملة وعمـا يهم فعلاً وحقيقة، ويجب الاشـتغال بـه من تحصيل المعـارف الحقة والأعمـال الصالحـة التي توصل الإنسـان إلى كماله وتحقـق لـه سـعادته الحقيقية مما يجعـل الاهتمام بهـا لنفسـها (يعنـي الدنيا) هـو فـي الحقيقة عبث فـي عبث وطيـش وحماقـة وسـفاهة وضعف عقل ومنطق.

ج. زينة وزخرف فاني، مثل: اللباس والحلي والمسكن والمركـب ونحوها، تزين أهلها وتحلو في أعينهم ثم تزول وتنتهي.

د. تفاخر بالإنسان وال ألقاب والمكانة والجاه وما حازه كل منكم من متاع الدنيا، وهي أمور إضافية خارجة من ذات الإنسان ونفسه، فليس لها فضيلة حقيقية ولا تمثل كمالاً حقيقياً للإنسان.

ه. تكاثر في الأموال والأولاد والقوة والسلطة ونحو ذلك، ليرى كل واحد منكم لنفسه فضلاً على من كان أقل منه في شيء من ذلك، فيجمعها مما يحل ومما لا يحل، ويفني عمره فيها وهي أمور إضافية خارجة عن ذاته وليس فيها فضيلة حقيقية للنفس، وتفنى ولا تبقى.

ومثل الأمور السالفة في رونقها الأخاذ وزوالها السريع بعد نضارتها، كمثل المطر ينبت الأرض فيعجب الزراع نباته بخضرته وجماله الخلاب وثمره وأريجه، وينمو إلى غايته وأقصى ما يمكنه النمو، ثم تراه يذبل مصفر اللون، ثم يكون يابساً ثم هشيماً تذروه الرياح وتعبث به، وفي مقابل ذلك: هناك عذاب شديد ومؤلم جداً في الآخرة لأعداء الله ﷻ والإنسانية من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين الفاسدين والانتهازيين النفعيين ولكل من انصرف إلى الدنيا بكله من العصاة الفاسقين، وتلهى بها وتورط في الشبهات والمحرمات والجرائم ونسي الله ﷻ والآخرة، وهناك أيضاً مغفرة

من الله تبارك وتعالى ورضوان ونعيم أبدي دائم لا يفنى ولا ينقطع لأولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين وأهل طاعته الذين عرفوا الله ذا الجلال والإكرام وعملوا من أجلها وجاهدوا الظلم والجور والطغيان وعملوا لمصلحة الإنسان وصلاحه.

وعليه: فالحياة الدنيا التي تلهي الناس بزخرفها وزينتها وأحوالها وأمورها عن الآخرة الجليلة الطيبة الكاملة الباقية التي لا تغني ولا تزول ويعيش فيها الإنسان بكماله الفعلي الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وأعماله الصالحة في نعيم دائم وسرور لا ينغصه ألم أو وهم أو غم أو حزن أو مرض أو موت أو أي شيء آخر، ما هي -يعني الدنيا- في الحقيقة والواقع وبحسب العقل والمنطق لوكنتم تعقلون وتعلمون حقائق الأمور إلا وسيلة لخداع الشيطان وتضليله لينتهي بكم المطاف إلى الشقاء الحقيقي الكامل والهلاك الفعلي والخسران المبين في الآخرة، فيجب على العاقل الحذر الشديد من الانصراف إليها والانهماك فيها وينبغي له الزهد فيها وأن يكون عمله من أجل الله سبحانه وتعالى والآخرة، وما يوجب كرامة العقبى والمقام العالي والمنزلة الرفيعة والدرجة العظيمة عند الله ذي الجلال والإكرام على الدوام، وفي الآية الشريفة المباركة إزدراء للدنيا وتصغير لأمرها وخطرها وتزهيد فيها وتعظيم للآخرة وإعلاء لشأنها وترغيب فيها وتشويق إليها.

٢. الأوهام والخرافات والخيالات الباطلة والأهواء والوساوس الشيطانية التي تقف وراء الأفكار الضالة والفلسفات المنحرفة والمذاهب الباطلة، مثل: الماركسية والوجودية والعلمانية والليبرالية والبرجماتية ونحوها، التي تنشأ عن تجاهل الحقائق والسنن والغفلة عن الصلة الوجودية الوثيقة التي لا يقبل الانفصال والانقطاع بين الحقائق الإلهية والسنن الكونية والتاريخية وبين كمال الإنسان وخيره وصلاحه ومصلحته الحقيقية في دورة الحياة الكاملة العرضية في الجغرافيا والطولية في التاريخ والزمان، وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، والعمي الإرادي عن كل ذلك، والوقوف خلف حجاب الطبيعة والمادة والمحسوسات وقد يصل الحال إلى إنكار عالم الغيب تماماً وعدم الاعتراف إلا بعالم المادة والطبيعة، و إنكار جميع الحقائق أو إمكان الوصول إليها والتعلق بحب الدنيا الفانية ومظاهرها الزائفة وزخارفها وزينتها التي هي رأس كل خطيئة والاستغراق في الشهوات الحيوانية واللذات الحسية ونحو ذلك.

وقد ضاعف من المشكلة وزاد في تعميقها وتعقيدها وظلمتها وقسوتها ومآسيها وجود أنظمة سياسية

واقتصادية واجتماعية شمولية تتجاهل حقيقة الإنسان باعتباره ذاتاً أصيلة وجوهراً فوق المادة وخارج عنها، وله متطلبات وأشواق ورغائب غير متطلبات الجسد والحياة الدنيا الفانية.

ثم تسابق القوى السياسية المتنافسة على السلطة، والحرص الشديد على زيادة الإنتاج من أجل إشباع الحاجات المادية (حاجات الجسد) وتتجاهل حاجات الروح والآخرة تماماً، وتسخّر إمكانيات الدولة ومؤسساتها من أجل فرض هذه الرؤية العبثية الضالة على الناس وتساهم بفعالية وعن قصد وسابق إصرار على تسيير الإنسان في طريق الغربة عن نفسه والعبثية والضياع، الذي ينتهي به حتماً إلى القهر والعنف والخطيئة والجريمة والشقاء الحقيقي والهلاك الفعلي والخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة.

وعليه: لا تقف المسألة عند حدود الحوار العلمي والمنطق والقناعات العقلية، بل تتعداه لتدخل في حدود عملية سلطوية قاهرة ورغبات نفسية جامحة تفسد الحوار والمنطق وتغطى عليهما.

٣. إتصاف الإنسان بالنرجسية والأنانية والاستغراق في

حب الذات، فلا تسمح له نرجسيته برؤية حقيقة نفسه ونوازعه ونواقص ذاته وعيوبها، ليسعى بعد ذلك في إصلاحها وسلوك طريق الحق والرشد والصواب، ولا يسمع نصيحة من صديق مخلص، ولا موعظة بالغة مؤثرة من ولي صالح بصير؛ لأنه يجعل نفسه نرجسية واستغراقه في حب ذاته، فوق النقص وفوق الخطأ وفوق النقد وفوق النصح وفوق الموعظة، وربما تصرف بعدوانية شديدة ضد كل من ينصحه أو يعظه أو يخطئه في رأيه أو في سلوكه أو في مواقفه أو في علاقاته أو في أي شيء آخر، ويقوم بتغطية عيوبه وتشوهاته الفكرية والروحية والأخلاقية والنفسية والسلوكية وتبريرها والإصرار عليها وعدم الاعتذار عنها، بل تحويلها إلى محاسن وفضائل ومآثر اكتسبها بعلمه وخبرته وعرقه وجهاده ويفتخر بها، ونحو ذلك من المنكرات والرذائل والفجائع التي لا يعلم حقيقتها ولا يلتفت إليها.

٤. حالة الترف المادي والاستغراق في الشهوات والملذات الحسية التي تذيب الإنسان وتصهره حسياً وتحجبه عن رؤية حقيقة نفسه وعن معرفه ربه وطريقه ومصيره في الحياة، وتجعل له أفقاً حسياً ضيقاً مظلماً وموحشاً جداً ومنظاراً مادياً يشوّه الصورة النورانية للحقائق

الإلهيـة والقيـم السـماوية ويطفـئ نورهـا فـلا يسـتفيد صاحبه من شعاعها وبهائها المتوهج، ويؤثر تأثيراً سلبياً علـى المعاييـر والمقاييـس والموازيـن المعنويـة التـي تقـاس وتـوزن وتقيـم بهـا الأمـور والسـلوكيات والمواقف والعلاقـات، فيضـل وتتشـكل لديه رؤية عن نفسـه وعن الكـون والحيـاة مظلمة مشـوهة ضالة مضلـة بعيدة عن الموضوعيـة والوقائـع والمنطـق، وعـن الفطـرة والحقائق والسـنن، فتبعـده عـن نفسـه وعـن فطرتـه أو عـن النـور والهداية والرشـاد، وتجعله يعيش في الأوهام والخيالات الباطلـة، وفـي اللاوعـي الأسـود المظلم الموحـش، وفي العبثيـة والتطفـل والغربـة والضيـاع، ويسـلك طريـق العنف والقسـوة والعدوانية والخطيئة والفساد والضلال والتحلل والانحطاط، الأمر الذي ينتهي به حتماً وصدقاً إلى الشـقاء الحقيقي الكامل والهلاك الفعلي والخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة.

٥. الوقوع في المعاصـي والذنوب والآثام والخطايا والجرائم والجنايـات التـي تشـكل حجابـاً كثيفـاً وسـتاراً غليظـاً يحجب الإنسـان عن رؤية حقيقة نفسـه، وعن مشـاهدة أنـوار الهدايـة والصـلاح والرشـاد وما عليها مـن الحجج والبينات وتجعلة عرضة لسـهام إبليس وشـركه وحبائله

وتسلطه عليه وتمكنه منه، فيصرفه عن النظر إلى حقيقة نفسه ورؤيتها، وعن البحث عن مبدئه وطريقه ومعاده، وعن سلوك طريق الخير والصلاح والسعادة والنجاة، وعن معرفة حقه وما يضره، فلكل ذنب ومعصية وخطيئة قفل يقفل باباً من أبواب العلم والمعرفة والصلاح، ويحجب النفس عن رؤية الواقع والحقائق الموضوعية والسنن في النفس والكون والمجتمع والتاريخ كما هي عليه، وقد يصل الأمر إلى درجة كبيرة من الخطورة والتشويه والضلال فيرى الإنسان الوقائع والحقائق والسنن بشكل معاكس ومغاير لها تماماً، فيرى طريق الخير والصلاح والرشاد شراً وفساداً وسفاهة، وطريق الشر والسفاهة خيراً وصلاحاً ورشاداً، ونحو ذلك من المنكرات والرذائل، وذلك كله انعكاساً للحالة الفكرية الضالة والروحية المنحدرة المظلمة والنفسية المريضة والسلوكية المنحرفة، التي يعاني منها العصاة النزقون الفاسقون وأصحاب الذنوب والمعاصي والخطايا والجرائم الكبيرة.

رابعاً: مراتب معرفة الله

معرفة الإنسان بالله سبحانه وتعالى ليست على درجة واحدة

عند جميع الناس وعند جميع الموحدين، بل تختلف وتتفاوت باختلاف وتفاوت المقامات العلمية والروحية للأشخاص، فإن الله تبارك وتعالى يتعرف لكل واحد من خلقه على مقدار قابليته واستعداده وقوة منطقه وإدراكه التي هي في الحقيقة انعكاسات لطهارة نفسه وتزكيتها ولصفاء قلبه ونورانيته، فيوحد كل إنسان بما ظهر له وتعرض عليه به، ويمكن تقسيم معرفة الإنسان بالله سبحانه وتعالى إلى أربع مراتب ودرجات رئيسية وهي:

أ. معرفة المقلدين الذين صدقوا بالدين الإلهي الحق وبعقيدة التوحيد واتبعوا أئمة الحق والهدى والدين عليهم السلام سيراً على الطريق الذي سار عليه آباؤهم وأجدادهم وأسلوب حياتهم وطريقتهم من غير أن تكون لهم حجة أو برهان صحيح، وهذه المعرفة ليست بمعرفة حقيقية ولا معبرة عند العقلاء وعند الموحدين الحقيقيين.

ب. معرفة أهل النظر والبرهان والاستدلال الذين حكموا بعقولهم وبالبرهان الصحيح القاطع على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى صفاته العليا وأسمائه الحسنى وأفعاله الصالحة الحكيمة وكمالاته، وذلك عن طريق النظر في الآيات الآفاقية والأنفسية، وفي نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية، وبالاستناد إلى المنطق

والرياضيات، والنظر في المبادئ العامة في الوجود والمفاهيم الكلية، مثل: الواجب والممكن، والعلة والمعلول، وبطلان التسلسل إلى ما لا نهاية ونحو ذلك، والاستفادة من كل ذلك الإيمان بالتوحيد بجميع أقسامه، مثل: توحيد الذات، توحيد الصفات، توحيد الأفعال، توحيد العبادة وتوحيد الربوبية وغيرها، واتباع الدين الإلهي الحق والصراط المستقيم والنهج القويم نهج الاعتدال والطريقة الوسطى والعمل بمقتضى ذلك في جميع الأمور وجميع شؤون الحياة الخاصة والعامة والاهتداء إلى أئمة الحق والهدى والدين واتباعهم والأخذ منهم والاقتداء بهم.

ج. معرفة المؤمنين المخلصين الذين اطمأنت قلوبهم بالله تبارك وتعالى والأنس به عن طريق الفطرة من غير اكتساب برهاني، وتيقنوا بأن الله سبحانه وتعالى هو نور السماوات والأرض كما وصف نفسه هو بذلك، قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ﴾[1]، فمالوا نحوه وانقطعوا إليه واستغنوا به عن كل شيء سواه صدقاً وعدلاً، وتمسكوا بالدين الإلهي الحق والصراط المستقيم ونهج الاعتدال القويم والطريقة الوسطى

١- النور: ٣٥

واتبعوا أئمة الحق والهدى والدين عليهم السلام، واقتدوا بهم في كل شيء وأخذوا منهم الدين وحدهم وكفروا بغيرهم والجبت والطاغوت.

د. معرفة أهل الرياضة والمجاهدة الروحية والشهود القلبي والمكاشفة والفناء في الله ذي الجلال والإكرام والبقاء به، وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى، وغاية كل طالب وعارف، التي يُعرف الله ذو الجلال والإكرام فيها بنفسه وبدون واسطة، أي: معرفة الله بالله، قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «اعرفوا الله بالله»[1]، وقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت»[2]، ولا يكون الوصول إلى هذه المرتبة من المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام والوقف عليها إلا بكرم الله تبارك وتعالى وفضله وإحسانه وتوفيقه وتسديده لعبده، قول الإمام الحسين عليه السلام: «منك أطلب الوصول إليك وبك استدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك»[3]، وهذه المعرفة هي أكمل المعرفة بالله

١- الكافي، جزء ١، صفحة ٨٥

٢- مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي

٣- مفاتيح الجنان، دعاء عرفة

ذي الجلال والإكرام؛ لأن المعرفة بالمكاشفة والشهود القلبي هي السبيل إلى المعرفة بحقائق الوجود على ما هي عليه، بيقين قاطع لا يقبل الشك ولا يتحمل الخطأ، وذلك عن طريق المكاشفة والذوق العشقي العرفاني والفناء في الله ذي الجلال والإكرام والبقاء به، قول الإمام الحسين عليه السلام: «إلهي علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون، وحققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي في مسالك أهل الجذب»[1]، وتسمى هذه المعرفة معرفة الله بالله، وهي معرفة حضورية يقينية لا تقبل الشك ولا تحتمل الخطأ، والطريق إليها هو تزكية النفس وتطهيرها من دنس الذنوب والمعاصي والخطايا والآثام والجرائم والجنايات، وتخليصها من حجاب المادة والطبيعة بتجريدها عن التعلق بحب الدنيا والاستغراق في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية، وضبط قوى النفس تحت سلطة العقل والدين الحنيف، وتصفية القلب المعنوي وصقله عن طريق المجاهدة والزهد والرياضات الروحية التي أقرها الشارع المقدس، وطبقاً للشريعة الإلهية وآدابها، والمداومة على الذكر والصلاة وسائر العبادات والطاعات والتفكر

١- مفاتيح الجنان، دعاء عرفة

فـي خلـق الله سـبحانه وتعالى وآياتـه الآفاقية والأنفسـية والكتابية، فيشـرق على صفحة قلب العارف المجاهد نـور مبـدأ الفيض وتطبـع عليه صور حقائـق الوجود كما هـي عليـه، ويحـدث بذلك عـروج روحي للمـلأ الأعلى وتحول عقلي نوراني عظيم في الإنسان العارف وتحصل له معرفة الله ذي الجلال والإكرام بالله تبارك وتعالى التي هي غاية كل طالب وعارف.

خامساً: بين المعرفة والعبادة

جاء في الحديث القدسـي: «كنت كنـزاً مخفياً فأحببت أن أعـرف، فخلفقـت الخلق لكي أعـرف»[1]، والحديـث يدل على أمور عديدة، منها:

أ. الغنـي المطلـق والرحمـة الواسـعة لله رب العالميـن سـبحانه وتعالـى، والفقـر المطلـق لجميـع الموجودات سواه في وجودها وبقائها وصفاتها وأفعالها وكمالاتها.١

ب. إن خلق المخلوقات وإيجاد الموجودات الممكنة كلها كان بـإرادة إغنائهـا، أي إخراجهـا مـن المطلـق (العدم) إلـى الغنـى النسـبي (الوجـود النسـبي)، وإيصالهـا إلى كمالهـا الممكن اللائق بها والمقدر لها، والذي يختلف

١- بحار الأنوار، جزء ٨٤، صفحة ١٩٩

باختلاف قابلياتها واستعداداتها.

ج. إن الغاية من الخلق هي المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، وعليه يجب أن يكون الطريق إليها واضحاً وبالغاً وفي متناول جميع الناس.

وبحسب الحقيقة والواقع: فإن الطرق إلى المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام كثيرة ومتنوعة إلا أن المعرفة بالنفس هي أفضل الطرق إلى المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة بحق المخلوقين بالله ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى، وهي في متناول جميع الناس كما سيتضح في شرح الحديث موضوع البحث.

وفي المقابل، قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، والآية الشريفة المباركة نص على أن العبادة هي الغاية من خلق الجن والإنس، الكائنات العاقلة التي تملك حرية الإرادة والاختيار، وعليها عهدة التكليف والعمل بالدين الإلهي والشريعة السماوية المقدسة، وهذا يعني أن وصول الإنسان إلى كماله اللائق به، والمقدر له بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الربانية الواسعة الذي خلق من أجله وكلف بطلبه والوصول إليه، وحصوله على السعادة الحقيقية

١- الذاريات: ٥٦

الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، لا يكون إلا بسلوك طريق العشق والمحبة لله رب العالمين والتقرب إليه بالعبادات والطاعات والتسليم إليه في جميع ما يأمر به وينهى عنه.

ويمكن الجمع بين النصين: النص على أن المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام هي الغاية من الخلق، والنص على أن العبادة هي الغاية من الخلق بالقول:

أ. إن المعرفة الحقيقية بالله ذي الجلال والإكرام يجب أن تفضي وتقود إلى العبادة والتسليم لله سبحانه وتعالى في جميع ما يأمر به وينهى عنه، أي أن المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، وأنه جامع لكل الكمالات، ومنزه عن كل عيب ونقص وآفة، ومعرفة صلته بالعالم والإنسان، وأن العالم وخلق الإنسان فيض من قدرته المطلقة ورحمته الواسعة، وأن إليه يرجع الإنسان وجميع الخلائق في يوم القيامة للحساب والجزاء، وأن لا مفر من ذلك ولا مهرب، يترتب عليه حتماً بحسب العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم رد فعل، هو اختصاصه بالطاعة المطلقة والعبادة الصادقة بنية خالصة، وأن لا قيمة للمعرفة بدون الطاعة والعبادة ولا يترتب عليها أثر ولا يستحق صاحبها الثواب عند الله تبارك وتعالى.

ب. إن المعرفة مقدمة ضرورية للعبادة الصحيحة المقبولة، فلا تحصل العبادة الصحيحة المقبولة ولا يحصل التكامل الروحي المطلوب والقرب من الله العلي الأعلى بدون المعرفة به، ولا قيمة للعبادة ولا تصح ولا تقبل بدون المعرفة، ولا تعد سيراً حقيقياً وفعلياً إلى الله ذي الجلال والإكرام بدون المعرفة به، بل تعد سيراً إلى غيره وإلى المجهول.

ج. إن العبادة الصادقة والصحيحة تفتح الباب على مصراعيه لمزيد من المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، أي: إن الذين نصبوا أنفسهم وجاهدوا في حقنا ولوجهنا الكريم، ومن أجل الدعوة لنا وإعلاء كلمتنا كلمة الحق المبين جهاراً علمياً وعملياً، مادياً ومعنوياً على أحسن وجه وأكمله بصدق وإخلاص نية، فلا ينصرفون عن الإيمان والطاعة فنأخذ بأيديهم ونؤيدهم ونوفقهم ونسددهم ونهديهم إلى أفضل الطرق للوصول إلينا والقرب منا والفوز بالرضوان والثواب الجزيل والنعيم المقيم، مثل: طريق جهاد النفس، وطريق جهاد الأعداء بالمال والنفس

١- العنكبوت: ٦٩

ونحو ذلك، وإن الله تبارك وتعالى دائماً وأبداً لمع المحسنين المجاهدين فيه بصدق وإخلاص نية بالنصر والعون والهداية وذلك لكمال عنايته المباركة بهم على قاعدة: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[1]، أي: إن جزاء الإحسان في العقيدة والعمل هو الإحسان في المكافأة والثواب والفوز بالمراد، فمن كان الله تبارك وتعالى معه لم يخذل وكان النصر والظفر والفلاح حليفه وفاز بمطلوبه.

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]، أي: إن تتقوا الله بطاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه وترك معصيته وتسلكوا طريق عشقه ومحبته وتجاهدوا أنفسكم بصدق وإخلاص، وتجردوها من حب الذات والأنانية ومخالب الشيطان الرجيم والتعلق بعالم الدنيا والمادة والاستغراق في الشهوات والملذات الحسية من أجل مرضاته، فإنه يجعل لكم شرحاً للصدور وثباتاً في القلوب وتسكيناً في النفوس وقوةً في البصيرة ونوراً ملكوتياً في العقول تمشون به في الناس، وستستطيعون به التفريق بين الهدى والضلال، والحق والباطل

١- الرحمن: ٦٠

٢- الأنفال: ٢٩

فـي العقيدة، وبين الصواب والخطأ في الرأي في مختلف الأمور والشـؤون، وبيـن الفضيلـة والرذيلـة في الأخـلاق، وبيـن الحلال والحرام، والطاعـة والمعصية في العمل، وبين الصديق والعدو، والسـعيد والشـقي فـي العلاقـات، ويتبيـن لكـم بـه المخرج من الشـبهات والمحـذورات والمـآزق، وتحصل لكم بـه النجاة من كل ما تخافونه وتحذرون منه، ونحو ذلك من الصفات الحسـنة والخصـال الحميـدة والمكاسـب العظيمـة، كما يسـتر علكيم تبعـات ذنوبكـم وأعمالكـم السـئية ويغفرها لكـم؛ لأن الله تبارك وتعالـى ذو فضـل عظيـم علـى النـاس، ورحمـة واسـعة بعباده، فينيلكـم بـركات السـماوات والأرض وخيراتها بصـدق إيمانكم وأعمالكم الصالحة، وماسبق يدل على الأمور المهمة التالية:

١. إن التقـوى والأعمـال الصالحـة هـي طريـق الوصول إلى الكمـال وعنـوان الخيـر والسـعادة والصـلاح والفـلاح للإنسان.

٢. إن أحـرى النـاس بموافقـة الحـق والصـواب هـم أهـل المجاهدة.

٣. كل مـن جـد واجتهد في طلب مرضـاة الله تبارك وتعالى تحصـل له مـن الهدايـة والمعونة والأسـرار فـي تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مقدوره وتدبيره.

وبنـاء على ما سـبق يتبين لنا بأن بيـن المعرفة وبين العبادة تـلازم وعلاقـة جدليـة تبادليـة، يؤثـر مـن خلالهـا كلاً منهمـا -المعرفـة والعبادة- في الآخر، إذ تفضـي المعرفة الحقيقية بالله ذي الجـلال والإكرام إلى العبـادة الصادقة الصحيحة المقبولة، وتفتـح العبـادة الصحيحـة المقبولـة البـاب علـى مصراعيـه لمزيـد من المعرفـة بالله ذي الجلال والإكـرام والهداية إلى الحق والصواب.

سادساً: غربة الإنسان المعاصر عن نفسه

إن أعظم المشـاكل التي تواجه الإنسـان المعاصر بسـبب جهله بنفسـه وأقسـاها هو الاغتراب عن نفسـه، فلا يعرف حقيقة نفسه ولا يعـرف ربـه، لا يعرف مبـدأه ومنتهاه ومصيـره، ولايعرف طريقه المثلـى فـي الحيـاة، وذلـك بسـبب اسـتغراقه فـي عالـم الدنيا والمادة الطبيعة واتباعه الأهواء والوسـاوس الشـيطانية، والأوهام والخرافـات والخيـالات الباطلـة التـي يحسـبها حقائـق يقينية ثابتـة، وتبثها الفلسـفات والمذاهب والمدارس المنحرفة، مثل: الماديـة والعلمانيـة والليبراليـة والبرجماتيـة والجبريـة والقدرية والمجسـمة ونحـو ذلـك، والخضـوع للرغبـات والشـهوات الحيوانيـة، والجـري وراء اللـذات الحسـية والمصالـح الدنيوية العاجلة الفانية، ولا شيء من ذلك يوافق العقل والمنطق والفطرة

والطبع السليم والأخلاق والدين الحنيف، مما يؤدي شعور الإنسان الفعلي والحقيقي بالضياع والغربة والحقارة والتفاهة والدناءة، والسير العبثي في طريق اللاوعي الأسود والمجهول، بلا هدف ولا غاية حقيقية في الحياة، حتى ينتهي به المطاف إلى الشقاء الحقيقي الكامل والهلاك الفعلي والخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة.

فالغاية التي تطمح إليها الحضارة الغربية الحديثة السائدة، ويؤسس لها الفلاسفة الماديون والعلمانيون والبرجماتيون وغيرهم، ويقصدها السياسيون بأعمالهم وبرامجهم وسياساتهم واستراتيجياتهم، هي التقدم التكنولوجي وزيادة الإنتاج من أجل المزيد من الكسب والترفيه والسيادة على الآخرين، وهذا في الحقيقة هو مرض العصر المستشري والقاتل، حيث يعيش الإنسان المعاصر متلهياً بالاكتشافات والاختراعات وزيادة الإنتاج، لتحقيق المزيد من الرخاء المادي والترفيه والسيادة، وهو الأمر الذي يتحقق أكثر وفي المقام الأول لمصلحة طبقة الأغنياء من الشعوب والأفراد على حساب طبقة الفقراء من الشعوب والأفراد، فيزداد الفارق بين الطبقتين الأغنياء والفقراء يوماً بعد يوم.

وفي سبيل المزيد من الأرباح وعلى خلاف المنطق والدين والأخلاق، يبذل الناس في ظل الحضارة المادية المعاصرة

كل جهدهم، ويسلكون كل طريق، ويأخذون بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة مادية ومعنوية، حتى عواطف الإنسان ومشاعره ومقدساته، تباع وتشترى كسلع في سوق العرض والطلب، وتمحى القيم النبيلة من قاموس السلوك والعلاقات بين البشر، فالشرف والكرامة والضمير والثقافة والدين والعلم والقيم والجنس ونسب العائلة وتاريخها والمكانة الاجتماعية ونحوها، كلها سلع تباع وتشترى في السوق بحسب قانون العرض والطلب، ولكل شيء ثمنه بحسب ما فيه من الربح والمنفعة، وتقوم وسائل الدعاية بعرضها من خلال وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي على اختلافها بما يناسبها، فتقدم مثلاً صورة مضخمة للجنس وتفرضها على أذواق المجتمع بأشكال شتى، وتتسع أبعاد الجنس في الدعاية لتشمل جميع جوانب الحياة، ويبتعد الجنس عن وظيفته الأصلية التلقائية، ليتحول إلى صناعة وحرفة وسلعة تجارية ليس فيه إشباع حقيقي للغريزة، ولا لذة أومتعة حقيقية ولا إنتاج وظيفي (التناسل)، بل يتحول إلى عبثية ولهو وضياع وفجور ودناءة وحقارة ليس فوقها دناءة ولا حقارة، وما يقدم على أنه جنس أو تحت عنوان الجنس ليس فيه شيء من الجنس، بل هو بديل حقير عنه يقدم تحت اسمه وعنوانه، وهو في الحقيقة مجموعة خيالات وأوهام وأوساخ مادية ومعنوية تتعلق بالجنس، وترتبط به وتحل

محله، وتشغل مكانه في صورة بشعة حقيرة منافية للعقل والفطرة والطبع السليم والأخلاق والدين الحنيف، وليس وراءه إلا الأمراض الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والجسمية، بدون أن يسأل الإنسان المعاصر المستغرق في مظاهر الحضارة المادية وفلسفاتها الباطلة ومذاهبها ومدارسها المنحرفة نفسه، عن حقيقة نفسه وعن مبدئها ومعادها ومصيرها وطريقتها المثلى في الحياة وغاية وجودها، وما يصلحها ويضرها ويليق بها بحسب طبيعتها وتكوينها ونحو ذلك، وبدلاً منه ينقاد وراء أهوائه الشيطانية وأوهامه ووساوسه ورغباته وغرائزه وشهواته الحيوانية وملذاته الحسية انقياداً أعمى، فيضع بذلك السلوك والتصرف الأحمق وغير المنطقي وغير الرشيد، الوسائل مكان الغايات، والأوهام والخرافات والخيالات الباطلة والوساوس مكان الحقائق والسنن الثابتة والمنطق السليم، مخالفاً في ذلك حقيقة كونه حيواناً عاقلاً مفكراً، يجب عليه أن يخضع حياته كلها للحقائق ويوزنها بميزان العقل والمنطق والدين الحنيف ليحفظ إنسانيته ويصون كرامته، ويصل إلى كماله الممكن المقدر له واللائق به ويحقق سعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، فالإنسان يخرج من إنسانيته وينسلخ منها وينتهك كرامته وحرمة نفسه، ويجلب لنفسه الشقاء الحقيقي والهلاك الفعلي والخسران المبين بمقدار ما يخالف

العقـل والمنطـق السـليم والحقائق والدين الإلهـي الحنيف في حياتـه، فـي سـلوكه وتصرفاتـه ومواقفـه وعلاقاتـه فـي كافـة الأمور والشؤون الخاصة والعامة، الدينية والزمانية.

فالاكتشـافات والاختراعـات العلميـة والتكنولوجيـا وزيـادة الإنتـاج والترفيـه، كلهـا مـا هـي فـي الحقيقـة إلا مجـرد وسـائل لتحقيـق غاية وجود الإنسـان التي تنبع وتبنـى من حقيقة خلقه وفطرته وطبعه السليم وتكوينه المؤلف من جوهرين (عنصرين): الروح والجسد، وهذا يعني أمور عديدة منها:

أ. إن الوجـود ليـس محصوراً في عالم المـادة، فهناك عالم الروح والمجردات، وأن لكل من الروح والجسد متطلبات ورغائـب وأشـواق، وأن ثمـة حيـاة أخـرى للإنسـان بعـد المـوت، يجب عليه أن يحسـب لها حسـابها ويأخذها بعيـن الاعتبـار في خياراته وسـلوكه ومواقفه وعلاقاته في الحياة كلها بطولها وعرضها.

ب. إن الاكتشـافات والاختراعـات العلميـة والتكنولوجيـا وزيـادة الانتـاج والترفيه ما هي إلا مجرد وسـائل للوصول إلـى غايات وأهدافها ورائها في حياة الإنسـان، وليسـت غايـة فـي نفسـها، وأن الاكتفـاء بهـا والاسـتغناء بهـا عن الجوانـب الروحيـة والأخلاقيـة ومتطلبـات الآخـرة، فيـه

إخلال بالتوازن وخروج عن نهج الاعتدال القويم والطريقة الوسطى المثلى في الحياة وهو من الحمق والجهل ومنافى الرشد والعقل والمنطق ومخالف للفطرة وأصل الخلقة والطبع السليم.

وبناء على ما سبق: فإن الحضارة المادية المعاصرة في ظل التطرف والإفراط والتفريط ومخالفة العقل والمنطق والفطرة وأصل الخلقة والطبع الإنساني السليم، تفرض على الإنسان ألواناً من القهر المادي والمعنوي والغربة والضياع والعبثية، وتعمل على تغيير فطرته التي فطره الله تبارك وتعالى عليها، وطبيعته الإنسانية الأصلية السامية التي خلق وجبل عليها، وتعاكس متطلبات الروح ورغائبها وأشواقها، وترغم الإنسان على الانصياع إلى شهواته الحيوانية والملذات الحسية والقبول بالأمر الواقع البائس المنحرف والاستسلام إليه وتشعره بالحقارة والتفاهة والدناءة، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[1]، وقولة تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2]، أي: إن الذين يتجاهلون الحق والحقائق والسنن الإلهية في حياتهم وتدبير شؤونهم الخاصة والعامة ويتبعون

١- محمد: ١٢

٢- الفرقان: ٤٤

أهواءهم الشيطانية ورغباتهم ونزواتهم وشهواتهم الحيوانية ويتمتعون بمتاع الحياة الدنيا تمتعاً حسياً محضاً ليس فيه أي لذة روحية، ويأكلون كما تأكل الأنعام، غافلين عما تؤول إليه عاقبتهم وينتهي إليه مصيرهم، ما هم في الحقيقة والواقع إلا كالبهائم التي لا تعقل؛ لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق إذناً، ولا إلى تدبره عقلاً، بل هم أضل من البهائم، وذلك للأسباب التالية:

١. لأن البهائم لم تجهز بالعقل والمنطق والروح الإنسانية التي هي من روح الله سبحانه وتعالى، لتسلك طريق الحق والهدى والرشاد وهؤلاء الجهلة الحمقى مجهزون بذلك ومع ذلك ضلوا وأفسدوا.

٢. لأن البهائم تعرف أربابها التي تعلفها وتتعهدها بالتربية وتتعادلها، وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء معاملتها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها بحسب غريزتها التي أودعت فيها، وهؤلاء الجهلة الحمقى لا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم، ولا ينقادون إليه ولا يميزون بين أصدقائهم الروحانيين وبين عدوهم الشيطان الرجيم وجنوده، ولا يطلبون الثواب والرضوان الإلهي الذي هو أعظم المنافع، ولا يجتنبون العقاب والسخط الإلهي الذي هو أعظم المضار، فهم يرجحون

ما يضرهم على ما ينفعهم وهذا ما لا تفعله البهائم.

٣. لأن البهائم لا تعقل التوحيد وبراهينه، ولا تعتقد ببطلانه، وهؤلاء الجهلة الحمقى اعتقدوا بطلان التوحيد رغم كثرة الدلائل والحجج عليه عناداً منهم وتعصباً ومكابرةً وجهلاً، وعليه فالبهائم أسلم عاقبة منهم.

وما سبق كله يدل على دناءة المعرضين عن الدين الإلهي الحق وحقارتهم وسوء طبعهم وشديد غربتهم عن أنفسهم.

وفي الحقيقة والواقع فإن ما يتعرض إليه الإنسان في ظل الحضارة المادية والإعراض عن الدين الإلهي الحق هو قهر يمارسه بإرادته واختياره، بسبب جهله وغفلته عن حقيقة نفسه ومبدئه ومصيره وقلة رشده ووقوعه في اللاوعي الأسود المظلم الموحش جداً، وأن نمو هذه الحضارة العمياء البائسة التي تغذيها الفلسفات المادية الإلحادية والعلمانية والليبرالية والبرجماتية العبثية الوجودية التائهة في ظل رعاية الحكومات والقوى السياسية النفعية التي توظف كافة إمكانيات الدول وسلطتها ومؤسساتها التشريعية والقضائية والتنفيذية لغرض هذا الواقع البائس والاتجاه المخزي على الناس، ومحاربة الدين الإلهي الحق والأولياء الصالحين والمصلحين الحقيقيين، الصادقين المخلصين المضحين الذين يسعون إلى ما فيه

صلاح الإنسان وخيره ومصلحته الحقيقية، وكماله وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وقيام حضارة إنسانية رشيدة نيرة متوازنة تقوم على تطويع الواقع وإخضاعه للعقل والدين الحنيف وإشباع متطلبات الروح والجسد معاً، وتلبية حاجات الدنيا والآخرة، والسعي للسمو الروحي والأخلاقي بالإنسان، والتحكم في الغرائز والشهوات وإخضاعها لسلطة العقل والدين الحنيف وضبطها عن طريق النظم والقوانين العادلة الوسطية، ويتجسد فيها مفهوم الخلافة الإلهية للإنسان على وجه الأرض ونحو ذلك من المعالم والآثار والصفات والأحوال.

ومن الواضح الجلي: أن ما سبق ذكره وبيانه لا يعني أبداً ولا بأي صورة دعوة الإنسان المعاصر إلى التنازل عما حققه واكتسبه من تقدم علمي وتكنولوجي وصناعي واقتصادي واجتماعي وسياسي وحقوقي، ما حققه من رفاه مادي لنفسه والعودة إلى عصور ما قبل الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية والتنظيمات الإرادية ونحوها، بحثاً عن الكمال الروحي والسعادة الحقيقة كما يزعم دعاة الرهبنة والتصوف والزهد الخرافي، فإن ذلك مخالف للعقل والمنطق والدين الحنيف، الذي يسعى لتحقيق التقدم الشامل في جميع المجالات وعلى كافة الأصعدة، والوصول إلى الكمال

الحضاري الممكن للبشرية في أنصع وأبهى الصور، لكنه يعني الدعوة إلى الحياة النظيفة الفاضلة الطيبة التي تقوم على الفكر والمنطق والحقائق والسنن وإتباع الدين الإلهي الحنيف وأئمة الحق والهدى عليهم السلام، وتوازن بين متطلبات الروح والجسد والدنيا والآخرة، أي: تجمع بين التنمية المادية والتنمية العقلية والروحية، وإخضاع قوة الشهوة وقوة الغضب لسلطة العقل والدين الحنيف وسلوك طريق الاعتدال والوسطية ووضع الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية والتقدم الصناعي وزيادة الانتاج ونحوها من المكان المناسب الذي ينبغي أن تكون فيه بوصفها وسائل تخدم غايات تعلو عليها وليست غاية في ذاتها، على قاعدة: وضع الشيء المناسب في المكان المناسب، وهي قاعدة صحيحة موافقة للحكمة، يقتضيها حسن النظم والظفر بالمراد، ولن يتحقق ذلك للإنسان إلا اذا عرف حقيقة نفسه وسوف يبقى بعيداً عنه ما بقى جاهلاً أو متجاهلاً أو غافلاً عن حقيقة نفسه.

الجدير بالذكر: إن ما حققه الإنسان المعاصر من التقدم العلمي والتكنولوجي والصناعي الذي يسمح له بوفرة الإنتاج وسهولته وقلة الجهد والحد من العمل الجسدي الشاق والمزيد من وقت الفراغ، الأمر الذي التعت عليه مصلحة العامل مع مصلحة رب العمل، وأبعد شبح الصراع بينهما كما صورته

الفلسفة الماركسية، ينبغي الاستفادة منه لصالح التنمية العقلية والروحية ولإشباع حركة التكامل الوجودي للإنسان المعرفي والتربوي والحضاري المتوازن، بدلاً من الاكتفاء بالجوانب المادية والمعنوية، والشعور بالغربة وضياع رؤوس الأموال والأغنياء الجشعين، على حساب حقيقة الإنسان وعاقبته ومصيره الوجودي في دورة الحياة الكاملة العرضية في المكان والجغرافيا والطولية في الزمان والتاريخ، أي: يسلخ الإنسان من حقيقته الإنسانية وانتهاك حرمته وكرامته والهبوط به إلى الدرك الأسفل للشيطنة والحيوانية السبعية والبهيمية، وإدخاله إلى متاهة اللاوعي الأسود المظلم الموحش، والشعور بالغربة والضياع وسلوك طريق العبثية والعنف الذي ينتهي به حتماً إلى الشقاء الحقيقي والهلاك الفعلي والخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة، الأمر الذي يتطلب تخليص الإنسان من القهر الإرادي وإخراجه من دائرة اللاوعي الأسود المظلم الموحش إلى دائرة الوعي والبصيرة والهداية والرشاد والصلاح بعمل إرادي واعٍ وبصير وجاد، والسمو بروحه وفكره وسلوكه ومواقفه وعلاقاته من عالم الجسد والمادة والطبيعة السفلى المظلمة، إلى عالم الروح والعقل والفكر العلوي الملكوتي المنير، ولن يتحقق ذلك أبداً إلا بمعرفة الإنسان بحقيقة نفسه ومبدئه ومعاده وطريقته الوسطى المثلى ومتطلبات

الروح والجسد والاستجابة لرغباتهما وأشواقهما بشكل متوازن وحكيم، مع تفضيل الروح على الجسد؛ لأنها تمثل حقيقة الإنسان وجوهر وجوده، وتفضيل الآخرة على الدنيا؛ لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، ولأن نعيم الدنيا يشوبه الألم والمنغصات ونعيم الآخرة خالص من كل ألم ومنغص.

غربة الإنسان المؤمن

في مقابل غربة الإنسان في الحضارة المادية، توجد غربة خاصة عزيزة ومتميزة للإنسان المؤمن في الحياة الدنيا من وجوه مختلفة، أذكرمنها التالي:

أ. لأنه يشعر بأن عالم الدنيا والمادة والطبيعة تحجبه عن ربه وعن عالم الملكوت الأعلى، عالم النور والطهارة والقداسة التي تنتمي إليه روحه، فيشعر بالغربة والوحشة في هذه الحياة، وأنها بمثابة السجن الموحش المظلم لروحه، وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «العارف شخصه مع الخلق، وقلبه مع الله تعالى ولو سهى قلبه عن الله تعالى طرفة عين لمات شوقاً إليه»[1].

ب. لأنه يشعر بأن الحياة الدنيا دار عبور، لا دار قرار وأن دار

١- بحار الأنوار، جزء ٣، صفحة ١٤

القرار هي الآخرة، فحاله كحال المسافر الغريب لأن الدار غير داره، والوطن غير وطنه والأهل غير أهله.

ج. لأنه بسبب معرفته بنفسه ومعرفته بربه وبطريقه في الحياة ومعاده ومصيره وتعمقه في المعارف الإلهية وأخذه بالقيم الروحية والأخلاقية السماوية العليا، واستغراقه في محبة الله ذي الجلال والإكرام، والأنس به والانقطاع التام إليه عن كل شيء والفناء فيه والبقاء به، ليشعر بالغربة بين الناس المستغرقين في عالم الدنيا والمادة والطبيعة المستلهين بزينتها وزخارفها وشؤونها وأحوالها، الغارقين في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية والمصالح الدنيوية العاجلة الفانية فلا يفهمون معارفه وأفكاره ولا يقبلونها، ويستوحشون من قيمه وسلوكه ومواقفه وعلاقاته، فيشعر بينهم بالغربة والضياع، قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»، أي: بدأ الاسلام غريباً في فكره وعقيدته وقيمه وتشريعاته بالنسبة إلى الجاهلية، وسيعود غريباً كذلك في فكره وعقيدته وقيمه وتشريعاته في جاهلية آخر الزمان، فطوبى للغرباء في الغربتين: الأولى حين بدأ الاسلام، والثانية حين يعود غريباً في آخر الزمان؛ لأنهم الراشدون المهتدون

والفائزون المفلحون الصالحون الذين يصلح بهم الآخرون وينجون من الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة.

سابعاً: طرق معرفة النفس

لمعرفة الإنسان بنفسه طرق عديدة موضوعة، بعضها خرافي، مثل: قراءة الكف، وبعضها علمي، مثل: علم النفس الحديث الذي يبحث في ظواهر النفس، الشعور به واللاشعور به للكشف عن قوانينها العامة، وبعضها علمي برهاني، مثل: علم النفس الفلسفي الذي يبحث في حقيقة النفس وعلاقتها بالجسد وبقائها بعد الموت وما فيه كمالها ونقصها وسعادتها وشقاءها ونحو ذلك، وبعضها ديني مأخوذ من مصادر الوحي والتنزيل، وهو شامل لجميع الجوانب ويقيني لا يقبل الخطأ إلا أنه يحتاج إلى منهج علمي دقيق لمعرفته على أحسن وأكمل وجه، ويمكن الجمع بين المناهج الثلاثة الصحيحة: علم النفس الحديث وعلم النفس الفلسفي وعلم النفس الإسلامي إن صح التعبير، للحصول على صورة متكاملة وواضحة ومفيدة للمعرفة بحقيقة النفس وخصائصها ووظائفها وأمراضها وطرق معالجتها ونحو ذلك، وقد اقتصرت هذه الدراسة القصيرة والمتواضعة على المصادر الدينية في المقام الأول، وقليل

من المصادر الفلسفية، ولم أتطرق إلى مواضيع علم النفس الحديث، وذلك لخصوصية موضوع البحث، وبسبب انعدام هذه المصادر في السجن.

ثامناً: قواعد خاصة لفهم حديث موضوع البحث

إذا تأملنا ودققنا في حديث موضوع البحث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، فإنا نتوصل إلى نتائج عديدة تصلح لأن تكون قواعد وضوابط خاصة رئيسية لفهم الحديث، منها:

١. إن معرفة النفس من سنخ معرفة الرب سبحانه وتعالى، وقد جاء في الحديث الشريف: «معرفة النفس عين معرفة الرب» و«معرفتها عين معرفته»، فهي السبيل الأفضل والأدق إلى المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة بحق المخلوقين لله رب العالمين سبحانه وتعالى، وفي الحديث الشريف: «أعرفكم لنفسه أعرفكم بربه»[1].

٢. إن المعرفة المقصودة تتعلق بالمعرفة الممكنة بحق المخلوقين، بالصفات والأسماء والأفعال الإلهية، وليس بالذات؛ لأن معرفة حقيقة الذات وكنهها غير ممكنة لأحد من الخلق على الإطلاق؛ لأن الذات الإلهية

١- علم اليقين، الفيض الكاشاني، جزء ١، صفحة ٢٢٢

مطلقة وعقول المخلوقين محدودة ويستحيل أن يحيط المحدود بالمطلق، ولأن الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، فلا سبيل لمعرفة حقيقة الذات على الإطلاق لأي أحد من المخلوقين، وعليه: لا يعلم ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ولا حيث هو إلا هو، وجاء النهي الشديد عن التفكير في الذات، قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله»[2]، وقوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا»[3].

٣. إن المراد هي المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين بخصوص اسم الرب العظيم من بين جميع الأسماء الحسنى وقد سبق بيان معناه وخصوصيته.

٤. إن فهم الحديث الشريف يتأثر بعوامل عديدة، منها:

أ. طهارة النفس من الذنوب والمعاصي والآثام والخطايا والجرائم والجنايات، ومن التعلق بحب

١- الشورى: ١١

٢- كنز العمال، الحديث: ٥٧٠٤

٣- نفس المصدر، الحديث: ٥٧٠٥

الدنيا وزخرفتها، ومن الأنانية والنرجسية والعدوانية ونحوها من الأمراض الروحية والأخلاقية والنفسية، وصفاء القلب ونورانيته والكمال الفكري والروحي للباحث، وتحليه بالصدق والإخلاص في النية، وتجرده للحقيقة وتحليه بالموضوعية والنزاهة في البحث، وشمول نظرته وتوازنها، وإحاطته العلمية بالحقائق والمعارف الإلهية.

ب. المنهج الذي يتبعه الباحث واستيفاؤه لكافة قواعد البحث العلمي العامة والقواعد الخاصة بالحديث موضوع البحث، وسلامة المنطق ومتانته ونحو ذلك.

الأقوال في شرح الحديث

وهي عديدة وتتفاوت في دقتها وقيمتها العملية والتربوية والحضارية واستيفائها للقواعد العامة والخاصة، منها:

القول الأول

إن الحديث الشريف هو من تعليق المحال، أي: إنه يفيد استحالة معرفة النفس؛ لأن معرفة النفس متعلقة بمعرفة الرب ومربوطة بها، ولأن الإحاطة العلمية بالله رب العالمين سبحانه

وتعالى مستحيلة، فكذلك معرفة النفس مستحيلة؛ لأن المعلق على مستحيل هو مستحيل، كذلك ويستدل أصحاب هذا القول على استحالة معرفة النفس بقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّي وَمَآ اُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، أي: إن الروح بحسب رأي أصحاب هذا القول، هي من الأمور الخفية التي لا يعلم بحقيقتها وكنهها إلا الله سبحانه وتعالى، الذي استئثر بذلك ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

وهذا القول في معرفة النفس خارج عما سبقت الإشارة إليه من أن المراد بالمعرفة هي المعرفة الممكنة في حق المخلوقين للأفعال والأسماء والصفات والكمالات الإلهية، وليست المعرفة بالذات الإلهية، ولا المعرفية المطلقة بالأفعال والأسماء والصفات والكمالات الإلهية، والمستحيل بحسب العقل هي المعرفة بالذات الإلهية والمعرفة المطلقة بالأفعال والأسماء والصفات والكمالات الإلهية، وليست المعرفة الممكنة الضرورية والمفروضة على الإنسان التي لولاها لم يحصل التوجه مطلقاً لله ذي الجلال والإكرام، ولا طاعته ولا عبادته، من الأمور التي تتوقف على المعرفة، بل لا تعد ممكنة أبداً، ولا تعد العبادة توجهاً مقصودة لله ذي الجلال والإكرام وسيراً إليه؛ لأن ذلك يتوقف على المعرفة، وبدون المعرفة يعد أمراً غير ممكناً، فلا

١- الإسراء: ٨٥

تكون للعبادة بدون المعرفة قيمة ولا فائدة فيها البتة.

وبذلك لا تقوم بدون المعرفة الممكنة بالله ذي الجلال والإكرام قائمة لدين إلهي مطلقاً، ولا يوثق بأي معرفة ويطمئن إليها على الإطلاق؛ لأنه لا ثبات لأي معرفة ولا اطمئنان لها في الحقيقة إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى، إذاً بدون المعرفة بالله سبحانه وتعالى تتهدم كل الأبنية التي تقوم عليها المعرفة اليقينية عند الإنسان كما هو واضح في بحث مصادر المعرفة في الفلسفة، قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله ولا تدرك معرفة الله إلا بالله»[1].

كما يتنافى هذا القول مع الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة الكثيرة جداً، ولا حصر لها التي تحث الناس على السعي والاجتهاد والحرص على معرفة النفس ومعرفة الله ذي الجلال والإكرام، مثل قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، وقول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3]، وفي الأحاديث

١- التوحيد، صفحة ١٤٣

٢- فصلت: ٥٣

٣- الذاريات: ٢٠-٢١

الشريفة، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «معرفة الله سبحانه أعلى المعارف»[1]، وقوله عليه السلام: «ومن عرف الله كملت معرفته»[2]، وقوله عليه السلام: «وثمرة العلم معرفة الله»[3]، وقوله عليه السلام في معرفة النفس: «أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه، فمن عرف نفسه عقل، ومن جهلها ضل»[4]، وقوله عليه السلام: «لا تجهل نفسك فإن الجاهل بمعرفة نفس جاهل بكل شي»[5]، وقوله عليه السلام: «من لم يعرف نفسه بَعُد عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والجهالات»[6]، وهذا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفيد بثلاثة أمور رئيسية في الموضوع، وهي:

أ. إن معرفة النفس ممكنة ومطلوبة.

ب. إن معرفة النفس لازمة من أجل الهداية والنجاة والسعادة.

ج. إن الجهل بمعرفة النفس يترتب عليه حتماً ضلال

١- غرر الحكم: ٨٩٦٤

٢- نفس المصدر: ٧٩٩٩

٣- نفس المصدر: ٥٤٨٦

٤- نفس المصدر: ٣٢٢٠

٥- نفس المصدر: ١٠٣٣٧

٦- نفس المصدر: ٩٠٣٤

الإنسان وضياعه وتخبطه وسيره في طريق الفساد والشقاء الكامل والهلاك الفعلي والخسران المبين.

وأما السؤال عن الروح في الآية الكريمة المباركة، فهو سؤال عن الروح الذي هو سبب الحياة، الذي يقوى به الحيوان على كافة الوظائف الحيوية والإرادية، مثل: الحركة والإدراك والإرادة، أهو قديم أم حادث؟ أو هو سؤال عن حقيقة الروح وكنهها؟ فجاء جواب القرآن الكريم في نقاط مختصرة وحاسمة، وهي:

أ. إنها حادثة وإنها حصلت بفعل الله وتكوينه، وإنه سبحانه وتعالى أوجدها بأمره الذي هو كلمة الإيجاد، وهي كلمة (كن)، قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وأمر الله سبحانه وتعالى في كل شيء هو ملكوت ذلك الشيء، والمراد به فعل الله المختص به الذي لاتتوسط فيه الأسباب الطبيعية الظاهرة ولا يتقدر بزمان أو مكان أو نحو ذلك، وهذا يعني: أن الأشياء المخلوقة التي يوجدها الله ﷻ هي على نوعين:

١. نوع يوجده الله ﷻ عن طريق الأسباب الطبيعية الظاهرة، مثل: خلق الإنسان عن طريق النطفة في

١- يس: ٨٢

رحم المرأة.

٢. نوع يوجده الله ﷻ بكلمة الإيجاد (كن) فيكون مثل خلق آدم عليه السلام من طين، وخلق عيسى من غير أب.

ب. إن للروح موقعاً من الوجود وخواصٌ وآثارٌ عجيبة بديعة.

ج. إن ما عند الإنسان من العلم بالروح هو قليل من كثير، وهو في حجاب عن العلم بحقيقة الروح وكنهها لأنها ليست من جنس المادة.

وقال الفخر الرازي: أن قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] فيه استدلال على حدوث الروح؛ لأن النفس تكون عند الولادة خالية تماماً من كل المعارف والعلوم، ثم يحصل فيها العلم تدريجياً، فلا تزال في التغيير من حال إلى حال، وفي التبدل من نقصان إلى كمال، والتغير والتبدل من إمارات الحدوث[2].

القول الثاني

إن معرفة النفس مترتبة على معرفة الرب سبحانه وتعالى باعتبارها أثراً من آثاره، تجلياً من تجلياته، ونوراً من أنواره البهية،

١- الإسراء: ٨٥

٢- التفسير الكبير، الفخر الرازي، جزء ٧، صفحة ٣٩٣

فـلا تحصـل معرفة النفـس إلا بمعرفـة الرب تبـارك وتعالـى، فإذا لـم تحصـل المعرفـة بالـرب تبـارك وتعالى فـلا تحصـل المعرفة بالنفـس، وإذا حصلـت المعرفـة بالرب تبـارك وتعالى حصلت تبعـاً لذلـك المعرفة بالنفـس، وعليه فكل من عرف نفسـه فهذا دليل على أنه قد عرف ربه، قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، أي: لا تكونوا من الذين نسـوا الله وجهلوا معرفته بصفاته العليا وأسمائه الحسنى وأفعاله وكمالاته التي ترتبط بها صفات الإنسان وأفعاله وكمالاتـه الاختيارية، مثـل: العلم والأعمال الصالحـة، والذاتية، مثـل: الفقـر الذاتي والحاجة إلى الله سـبحانه وتعالى في وجوده وحياتـه وبقائه وصفاته وأفعاله وكمالاته، وذل العبودية في مقابل عز الربوبية، فأنسـاهم الله ﷻ أنفسـهم ومصالحهم بالخذلان فلم يعرفوها وضيعوا إنسـانيتهم ومنافعهم، وصـار أمرهم فرطاً، بتوهم الاسـتقلال في الوجـود والأفعال والصفات والكمـالات، فيترتب علـى ذلك الخـروج عن ربقة العبوديـة وزيها، والوقـوع في الغربة عـن النفس ووحشـتها والدخول إلـى متاهة الضيـاع والانصراف عـن كل عمل ينجيهم من العذاب الأليم والهلاك، ويعود عليهم بالصلاح والكمال والخير والسـعادة، والسـير فـي طريق العبثية والانشغال بالشهوات الحيوانية والملذات الحسية حتى ينتهي

١- الحشر: ١٩

بهم المطاف إلى الشقاء الكامل والهلاك الفعلي والخسران المبين.

والخلاصة: أن الجهل بالله ذي الجلال والإكرام يترتب عليها الجهل بالنفس، والمعرفة بالله ذي الجلال والإكرام يترتب عليها المعرفة بالنفس.

وأساس هذا القول، هو أن المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام لا تحتاج إلى غيره، وذلك لكمال ظهوره، قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1]، أي: إن الله سبحانه وتعالى أجمل وألطف ما في الوجود، وأنه ظاهر بذاته، مظهر لغيره، مثل: النور الذي لا تحتاج رؤيته لغيره، وتحتاج رؤية غيره إليه، فالله سبحانه وتعالى نور في ذاته، ولا يوجد في الوجود ما هو أظهر وأجمل منه، ويشرق منه النور الذي يستنير به كل شيء، ويظهر من بركات وجوده وفيضه، ولو انقطع عن الأشياء لحظة لتحولت حالاً إلى ظلمات الفناء والعدم، وعليه: فجميع أنوار الوجود تأخذ نورها من نور الله

١- النور: ٣٥

سبحانه وتعالى، وكل مخلوق يستمد من نور الله سبحانه وتعالى بمقدار قابليته واستعداده وارتباطه بالله ذي الجلال والإكرام، وفي دعاء الجوشن الكبير المروي عن الإمام السجاد عليه السلام، عن أبيه عن جده عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدر النور، يا نور كل نور، يا نور قبل كل نور، يا نور بعد كل نور، يا نور فوق كل نور، يا نور ليس كمثله نور»[1]، وقيل إن ظهور الأشياء بالنور الإلهي هو عين وجودها وصلاحها وكمالها، وظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسية هو غير أصل وجودها وكمالها، وهو في غاية الوضوح.

واستدل أصحاب هذا القول على رأيهم بقول الإمام الحسين عليه السلام: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِماهُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إِلى دَليل يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً»[2]، وقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «بِكَ عَرَفْتُكَ وَاَنْتَ دَلَلْتَني عَلَيْكَ وَدَعَوْتَني اِلَيْكَ، وَلَوْلا اَنْتَ لَمْ اَدْرِ ما اَنْتَ»[3]، وقول

١- مفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الكبير

٢- مفاتيح الجنان، دعاء عرفة

٣- مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي

الإمـام الصادق عليه السلام: «إنّما عَـرَفَ الله مَن عَرَفَهُ بِالله، فَمَن لَم يَعرِفْهُ بِهِ فلَيسَ يَعرِفُهُ»، وقوله عليه السلام: «وَلَا تُدْرَكُ مَعْرِفَةُ اللهِ إِلَّا بِاللهِ»[1]؟

وهذا القول صحيح في نفسه وتؤيده الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، عن الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام، ويمكن استفادته من نص حديث موضوع البحث، ويسمى الطريق المشار إليه فيه للمعرفة بالله سبحانه وتعالى: «طريق اللّم»، وهو الطريق الأكمل في المعرفة، ويقابله طريق الإن، الذي يعني أن النفس هي الطريق إلى معرفة الرب سبحانه وتعالى، أي: أن طريق اللّم يعني السير من الأعلى إلى الأسفل، وطريق الإن يعني السير من الأسفل إلى الأعلى.

وفي الحقيقة: فإن بين المعرفتين، معرفة النفس ومعرفة الرب، تلازم وعلاقة جدلية بمعنى يلزم من معرفة الرب معرفة النفس، ويلزم من معرفة النفس معرفة الرب، وأنه كلما زادت المعرفة بالرب زادت المعرفة بالنفس، وكلما زادت المعرفة بالنفس زادت معها المعرفة بالرب سبحانه وتعالى.

القول الثالث

إن من عرف حقيقة نفسه حق المعرفة فقد عرف وأيقن بأنها حادثة ولها محدث، وأنها مدبرة ولها مدبر، وأن الخالق الذي

١- التوحيد، صفحة ١٤٣

أحدثها وأنعم عليها بالوجود والحياة والبقاء ويدبر أمرها وينعم عليها بالرزق، هو حي بذاته وقديم منذ الأزل، وباقٍ إلى الأبد بلا بداية ولا نهاية لوجوده، أي: واجب الوجود بذاته وأنه قادر قدرة مطلقة على كل شيء ممكن، وغني عنا مطلقاً، لا يفتقر إلى شيء في وجوده وكماله، وهو واسع الرحمة ومتصف بجميع الكمالات ومنزه عن كل نقص وعيب وآفة، وهذه الصفات معلومة للعقل بالضرورة، وبها استحق أن يكون خالقاً وليس مخلوقاً، وبدونها لا يكون بينه وبين المخلوقات فرق، ويكون محتاجاً في وجوده إلى خالق، وبهذا لا يمكن فهم حدوث الكون وتفسيره، وبناء على ما سبق فإن الإنسان يستمد وجوده وحياته وبقاءه وصفاته وأفعاله وكمالاته من الله ذي الجلال والإكرام، ولا يستقبل في شيء من ذلك، وليس له شيء منه بدونه، وأن شكر الله سبحانه وتعالى وطاعته وعشقه واجب ثابت بحكم الفطرة والطبع السليم والعقل والمنطق والأخلاق على قادعدة: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[1]، وتسمى أيضاً: عرفان الجميل.

وأيضاً من عرف حقيقة نفسه عرف بأن نفسه جوهر بسيط مجرد عن المادة ومخالف للبدن، مما يدل على أن الوجود ليس منحصراً في علم الطبيعة والمادة، وأن هناك عالماً غير عالم الطبيعة والمادة أوسع منه وأشرف وجوداً وأعلى رتبة منه

١- الرحمن: ٦٠

وأكثر متانة وقوة، وأنه المكان المناسب الذي ينبغي أن تسكنه الروح (النفس)، وأن فيه أنسها وأمنها من جنس ذلك العالم فتعشقه وتميل إليه وتنجذب بطبعها، وتسعى للتخلص من حجاب المادة والطبيعية، والوصول إلى ذلك العالم النوراني الواسع والإقامة فيه، فإن لم تصل فسوف تبقى في غربة وضياع ونقص واضطراب، سجينة مستوحشة وحزينة دائماً وتشقى وتهلك حتماً ويقيناً.

القول الرابع

إن من عرف حقيقة نفسه حق المعرفة علم اليقين بأنها الفقيرة إلى الله الغني الحميد سبحانه وتعالى في وجودها وحياتها وصفاتها وأفعالها وكمالاتها وأنها مملوكة له ملكاً كاملاً مطلقاً لا تستقل عنه في شيء، وأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا أي شيء آخر من صفاتها وشؤونها وأحوالها، فإنه بحسب نظرته وطبيعته وغريزة حب الكمال لديه وبحسب العقل والمنطق أيضاً يعشق ربه وينقطع إليه عن كل شيء سواه، وينصرف عن جميع الحجب والآثار إلى مصدر الفيض والنور والآثار، ويطيعه ويحسن عبادته لأنه أهل الطاعة والعبادة، ويسعى بصدق وإخلاص نية في مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، والعبادة ويسعى بصدق وإخلاص نية

في مجاهدة النفس الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم، وتطهير النفس من دنس الذنوب والمعاصي والخطايا والآثام والجرائم والجنايات ورذائل الأخلاق وخبائث الصفات وتزكيتها وتخليصها من كدرات عالم المادة والطبيعة وظلماتها، ومن التعلق بحب الدنيا وزينتها وزخارفها ومن أسر الشهوات الحيوانية والملذات الحسية ونحوها، التي هي الحجب المانعة والغطاء للنفس عن تحصيل المعارف الإلهية والنفحات الربانية القدسية وعن المعرفة اليقينية بالله ذي الجلال والإكرام وحبه والأنس به والانقطاع إليه، وعن النظر إلى عالم الملكوت الأعلى، عالم النور والطهارة والقداسة، فيقدر تطهير النفس من دنس هذه الخبائث والكدرات وتزكيتها وتحليتها بشرائف الصفات وفضائل الأخلاق والخصال الحميدة وعمارتها بوظائف الطاعات والعبادات، فإنها تتحادى شطر الحق تبارك وتعالى ويحصل للعارف صفاء القلب، ويكون مستعداً للانتقال إلى عالم الملكوت الأعلى، عالم النور والطهارة والقداسة والإقامة فيه أبداً مع مصاحبة الأرواح الطيبة والملائكة المطهرين عليهم السلام لأن الجوهر الإلهي (الروح-النفس) في الإنسان، إذا صفا من كدورة المادة، وتطهر من الأخباث المعنوية، وتخلى عن الشهوات الحيوانية والعلائق الدنيوية، وتحكم في الأهواء والوساوس الشيطانية والأوهام والخيالات الباطلة والخرافات،

وسيطر عليها، انجذب بحكم الطبع والمناسبة (المشابهة) إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى أشباهه من الجواهر المجردة الأرواح الطيبة والملائكة المطهرين عليهم السلام، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل، ومنبع جميع الخيرات، ويستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي الكامل وسبحات الجلال، ومطالعة جمال الخير المحض والفيض الأقدس، ويصل إلى مقام التوحيد الخالص الذي هو نهاية المقامات غاية الطالبين والعارضين، فيفيض عليه رب الأرباب الجامع لكل الكمالات من أنواره البهيّة، ويستنير بالنور الإلهي البهي، ويستمد منه لطائف الحكمة، ويمتلئ من الشوق الإلهي الذي هو أفضل مراتب الشوق، ينتعش بالعشق الإلهي، وما يرد عليه من النفحات الغيبية وتظهر له من المزايا والإفاضات الرحمانية، والأنوار والألطاف الربانية، وتظهر فيه آثار الروحانية ويتحلى بالكمالات المعنوية، وتتفتح له أبواب الهداية وسبل المعرفة ويرى بعين قلبه حقائق الأشياء كما هي عليه، أي: يحصل له العلم النوراني اليقيني الذي لا يقبل الشك ولا يحتمل الخطأ، ويكون في غاية الظهور والجلاء، لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة (الشهود القلبي)، قول الله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[1]، وتحصل له المعرفة

١- الكهف: ٦٥

المباشرة بالله سبحانه وتعالى، وهي معرفة الله بالله الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، قول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ اَقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، أي: وهي المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين لله ذي الجلال والإكرام؛ لأن الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى يرفع كل حجاب مضروب على القلب، فينفتح عين البصيرة وتحصل المشاهدة القلبية مباشرة بلا توسط وسط، ويتحصل منها العلم بالله ذي الجلال والإكرام الذي لا يقبل الشك ولا يتحمل الخطأ، فيذهل بمشاهدة أنوار الجمال وسبحات الجلال والكبرياء عن نفسه، وعن كل شيء ويفنى في المعشوق، ويبقى به ويشعر باللذة لا تشبهها لذة، ويخلو من جميع الآلام والحسرات ويكون أبداً مسروراً بذاته، مغتبطاً بحاله، مبهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأول والخير المحض، ولا يسر إلا بتلك اللذات الروحية، ولا يغتبط إلا بها، فيصل إلى مقام ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَآ اُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ اَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، وهذه المرتبة من المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام هي أعلى مراتب الوصول ونهاية درجات الكمال المقدر لنوع الإنسان، والغاية القصوى للعاشقين والطالبين،

١- ق: ١٦

٢- السجدة: ١٧

وتسمى: معرفة الله بالله. وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قول الله تعالى في الحديث القدسي: «فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين، ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرفه الشر الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء، وأنومه في قبره وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غم الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثم اضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحسنين»[1].

وخلاصة هذا القول: أن المعرفة بحقيقة النفس تترتب عليها المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين بالله ذي الجلال والإكرام، وهذه المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام

١- الميزان، العلامة الطباطبائي، جزء ٧، صفحة ١٧٥-١٧٦

يترتب عليها عشقه، وليس مجرد محبته، وبطبيعة العشق الذي هو من مختصات الإنسان، فإنه يستولي تماماً على العاشق، ويجعل اهتمامه كله مشدوداً إلى المعشوق، ويخلق نوعاً من التوحيد بين العاشق وبين المعشوق، ويجعل العاشق منقطعاً تماماً عن كل شيء غير المعشوق، ويتباهى بالتضحية من أجله، ويتظاهر حياله بالعبودية والتفاني، ويسمى: فناء العاشق في المعشوق. ومن شأن العاشق لله ذي الجلال والإكرام أن يتجلى أثر العشق في العبادة والطاعة بصورة عامة، وفي العبادة والطاعة العينية على المعشوق بشكل خاص، مثل: أن يتعين عليه القتال في سبيل الله ﷻ أو الصبر على السجن والأذى أو الإنفاق ونحو ذلك.

ومن شأن الانقطاع إلى الله ذي الجلال والإكرام أن يرفع كل حجاب مضروب على القلب، فتنفتح عين البصيرة وتحصل المشاهدة القلبية، وتظهر في العارف العاشق المنقطع، آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء ولطائف الحكمة، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه، وتحصل له معرفة الله بالله، وهي المعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين التي تمثل أعلى مراتب الوصول، ونهاية درجات الكمال المقدرة لنوع الإنسان، وهي الغاية القصوى للعارفين الطالبين العاشقين، وهكذا تكون المعرفة بالنفس

أفضـل الطـرق للمعرفة الكاملـة بالله، ونحصل علـى معنى وافي للحديث الشريف موضوع البحث.

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

أ. إن معرفـة النفـس هـي الطريـق الأفضـل والأدق لمعرفـة الإنسـان بربه سـبحانه وتعالى الذي إليه منتهاه، منتهى الطلـب ومنتهـى الرجـوع والحسـاب والأعمـال القلبية، مثـل: الاعتقادات، والجسـمية، مثـل: الصلاة، هي التي تربي النفس الإنسـانية التربية المناسـبة ليسـنخها وإن كانت الأعمال القلبية والجسمية صالحة، كانت النفس المستكملة بها سعيدة ومصلحة في سعيها ورابحة في صفقتها، وإن كانت الأعمال القلبية والجسـمية سـيئة كانت النفس المسـتكلمة بها شـقية وخائبة في سعيها وخاسرة في صفقتها.

ب. إن تطهيـر النفس وتزكيتها وسـيلة إلـى تحصيل المعرفة الحقيقية العاليـة الكاملة الممكنة في حق المخلوقين بـالله ذي الجـلال والإكـرام، حيـث تحصـل للعـارف العاشـق المنقطـع بـالله سـبحانه وتعالـى عن كل شـيء غيـره، المعرفـة لله بـالله، وهـي معرفـة حضوريـة مباشـرة يقينيـة لا تقبـل الشـك، ولا تحتمل الخطـأ، ولايمكن أن

تحصل هذه المعرفة للإنسان بدون تطهير النفس وتزكيتها، وهي تختلف عن المعرفة الاستدلالية التي تحصل بالنظر إلى النفس وآياتها كأثار ومعلولات لله سبحانه وتعالى، واليقين الاستدلالي مشوب ولا يرقى إلى مستوى اليقين الخالص الناجم عن الشهود القلبي الذي يشير إليه هذا القول لإبرازه.

ج. إن الرحمة الإلهية بحكم العناية الإلهية مبذولة للكل، غير مضنون بها على أحد من الخلق، غير أن حصولها موقوف على صفاء مرآة القلب وتطهير النفس من الدنس والخبائث؛ لأن منشأ العلم ومناطه في الحقيقة هو التجرد وصفاء القلب وطهارة النفس، فكلما زاد تجرد النفس وطهارتها وصفاء القلب ازداد الإنسان إيماناً ويقيناً ومعرفةً، وعليه لا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تبارك وتعالى، وإنما يحصل الاحتجاب من جهة القلب لما يوجد فيه من كدورة وخبائث واشتغاله بما يمنعه من تحصيل المعارف الحقة ونيل الفيوض الربانية والألطاف الإلهية.

د. إن الله سبحانه وتعالى مشهود لخلقه غير غائب ولا محجوب عنهم، إلا أن تحجبهم غفلتهم وذنوبهم

وأعمالهم السيئة عنه، وأن المحبوب الحقيقي للإنسان فطرته وتكوينه، هو الذات الإلهية المقدسة الجامعة لكل الكمالات، وأصل خير ونعمة وكمال للموجودات كافة، وكل حب روحي لغيره يجب أن يكون بحسب العقل والمنطق امتداداً له ومستمداً منه.

إضاءة قرانية

قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾[1]، أي: إن الاكتراث للناس عند الله سبحانه وتعالى إنما هو لعبادتهم له ودعائهم إياه، وبدون الطاعة والعبادة والدعاء فإنه لا قدر ولا منزلة لهم عنده جل جلاله، ولا يهتم ولا يكترث لهم ولا يعتد بهم، ولا يكونوا عنده بشيء يبالي به ولا يستحقون عنده جل جلاله الذكر والحب والعناية أبداً، فالذي يعطي الإنسان القيمة والوزن والمقام الرفيع عند الله جل جلاله هو الإيمان والطاعة والتوجه إلى الله ذي الجلال والإكرام بالدعاء والعبادة، وبدون ذلك يفقد الإنسان قيمته ووزنه ومقامه الرفيع، ويتحول إلى كائن حقير، وهذا أمر واقعي موافق للحكمة الإلهية البالغة، وليس أمراً مزاجياً ومخالفاً لمقتضى الرحمة، والحكمة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً،

١- الفرقان: ٧٧

كما قد يتوهم الجهلة والحمقى؛ لأن الإنسان إذا عرف حقيقة نفسه حق المعرفة فقد عرف بأنه مخلوق وله خالق، وأن الخالق واجب الوجود بذاته غني مطلق جواد كريم رحيم، وجامع لكل الكمالات، ومنزه عن كل نقص وعيب وآفة، وأن الإنسان فقير في نفسه محتاج إلى خالقه في وجوده وحياته وبقائه وصفاته وأفعاله وكمالاته، غير مستقل عنه في شيء من ذلك، ويحصل له الكمال والغنى ويستحق الرحمة والنعيم من الله تبارك وتعالى بطاعته والتوجه إليه بالعبادة والدعاء، واكتساب صفات كماله، صفات الجمال وصفات الجلال، والتخلق بأخلاقه، فيسلك طريق العشق والمحبة له، والانقطاع إليه عن كل شيء غيره، وذلك بحكم العقل وبمقتضى الفطرة والطبع السليم وحب الكمال لديه، فإذا لم يفعل ذلك وسلك طريق الجحود والنكران والمعصية فهو دليل على جهله وحمقه وعناده واستكباره، بالامتناع عن قبول الحق وعدم الإذعان له، ولمخالفته الفطرة التي فطر عليها، وحكم العقل والمنطق، ومن كانت هذه صفته فلا خير فيه ولا خير يرجى منه، ويتركه الله جل جلاله لنفسه، ولما اختاره لها ولا يكترث به ولا يهتم له؛ لأنه غني عنه تماماً، ولأن الإنسان بسبب عناده بامتناعه عن قبول الحق وتحليه بالصفات القبيحة والأخلاق الذميمة، واختيار طريق الباطل والضلال والرذيلة والشر، قد انسلخ من إنسانيته

وفقد قيمته وكرامته ومنزلته ومقامه الرفيع، بمحض إرادته وسوء اختياره، وأصبح بعيد عن الحق والهدى والفضيلة والرشاد ومستحقاً للهلاك والعذاب الأليم في الدارين الدنيا والآخرة، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، فقد أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وعبادته؛ لأن الطاعة والعبادة له توافق العقل والمنطق والفطرة، وهو الطريق الوحيد الواقعي والفعلي إلى النجاة من الشقاء والهلاك والوصول إلى الكمال الممكن المقدر للإنسان، وتحصيل الرحمة والسعادة والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم المقيم، ولا طريق غيره إلى ذلك على الاطلاق وضمنه لهم الإجابة المطلقة، إذا كان المطيع والعابد والداعي بحسب الحقيقة، مريداً بحسب العلم الفطري، وهذا من لطف الله تبارك وتعالى بعباده، ونعمته العظيمة عليهم، وفي الحديث الشريف، عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أُعطيَ الدعاء أُعطيَ الإجابة، ومن أُعطيَ الشكر أُعطيَ الزيادة، ومن أُعطيَ التوكل، أُعطيَ الكفاية فإن الله عزوجل يقول في كتابه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وفي المقابل فإن المعصية وترك الدعاء

١- غافر: ٦٠

٢- الكافي، جزء ٢، صفحة ٦٥

والعبادة لله سبحانه وتعالى، مخالف للعقل والمنطق والفطرة، وطريق إلى النقص والحقارة والدناءة والانسلاخ من الإنسانية، وإلى الشر والشقاء والهلاك والعذاب الأليم في الدارين الدنيا والآخرة، وهو دليل على الغرور والعناد والاستكبار؛ لأن في الطاعة والعبادة اعتراف بالفقر والحاجة إلى الله سبحانه وتعالى وإظهار إلى ذل العبودية له، وفي ترك الطاعة والعبادة استكبار واستنكاف عن إظهار ذل العبودية لله ﷻ.

وبناء على ما سبق فقد بعث الله تبارك وتعالى رسله الكرام عليهم السلام إلى الناس لهدايتهم إلى طاعته وعبادته، رحمة منه بهم لينتفعوا بعبادته ويستغنوا بطاعته، وقطعاً لعذرهم وإقامة الحجة المبالغة عليهم، وفي الآية الشريفة المباركة حث على الطاعة والعبادة وترغيب فيها وتشويق إليها وإنذار شديد اللهجة إلى المغرورين الحمقى المستكبرين عن طاعته وعبادته، وتحذير لهم من العواقب الوخيمة التي تترتب على سوء اختيارهم وإعراضهم عن طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته.

القول الخامس

من عرف حقيقة نفسه وعرف أنها جوهر بسيط مجرد، ومتعلقة بالجسد (البدن) تعلق تدبير وتصرف، لا يعزب عنها شيء

من أفعاله وأحواله، ولا يصدر عنه شيء إلا بأمرها وتدبيرها، وأنها تستقبل بتدبير الجسد، لا يشاركها في تدبيره غيرها، ولو تعددت الأنفس (الأرواح) المدبرة في الجسد الواحد لفسد واضمحل. عرف بأن لهذا العالم (الكون) مدبراً واحداً يستقل بتدبيره لا يشاركه في تدبيره غيره، ولا يغيب عن علمه شيء فيه، ولو شاركه غيره في تدبير العالم، ولو جهل بشيء مما يحدث فيه، لخرج العالم عن سلطته وتدبيره وفسد واضمحل، قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]، أي: لو كان المدبر في السماوات والأرض (العالم - الكون) آلهة شتى غير الله سبحانه وتعالى، الذي هو فاطرهما وخالقهما لفسدتا واضمحتلتا وفسد واضمحل كل من فيهما من المخلوقات؛ لأن الآلهة المتعددين سوف يكونون مختلفين ذاتاً، متفاوتين علماً وقدرةً، متباينين في الإرادة والتدبير لاستحالة اتفاقهم في شيء، وسيكون كل واحد منهم قادراً على فعل ما يريد من الخلق والتدبير، وهذا يقتضي تميز ملك كل إله عن ملك الآلهة الآخرين، واختلاف نظام كل إله

١- الأنبياء: ٢٢

٢- يونس: ٦١

في ملكه عن نظام الآلهة الاخرين في أملاكهم، ولحدث بينهم التحارب والتغالب والاختلاف، ولعلا بعضهم على بعض، فيتعارض التدبير والنظام في الكون، فيحدث بسبب ذلك فساد الكون واضمحلاله، وأيضاً لو جهل الله سبحانه وتعالى شيئاً في الكون لخرج عن سلطته وتدبير وانتهى إلى الفساد والاضمحلال، ولأن نظام الكون (العالم) واحد ودقيق ومحكم ومنسجم الأجزاء، ويعاضد بعضه بعضاً، وفي أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، فهذا يدل بشكل يقيني وقاطع على أن المدبر للكون رب واحد أحد صمد لا شريك له، وأنه ويعلم بكل شيء يحدث فيه، وفي الآية الشريفة المباركة دلالة على ثلاثة أمور رئيسية، وهي:

١. وجوب أن يكون للعالم (الكون) مدبر واحد، وأن يكون عالماً بكل شيء فيه لكي لا يفسد الكون ومن فيه.

٢. أن يكون ذلك الواحد هو الله سبحانه وتعالى رب العالمين فاطر السماوات والأرض وخالقهما.

٣. أن الله سبحانه وتعالى غني مطلق (واجب الوجود لذاته) وجامع لكل الكمالات، ومنزه عن كل نقص وعيب وآفة وغيره من الموجودات فقيرة في ذاتها، تستمد وجودها وبقاءها وصفاتها وأفعالها وكمالاتها منه وحده لا شريك له.

وأيضاً من عرف حقيقة نفسه بأنها جوهر بسيط مجرد، وأنها غير داخلة في الجسد دخول الممازجة، ولا خارجة عنه خروج المفارقة، وأنها ليست في مكان مخصص منه، ولا يخلو منها مكان منه، ولايمكن للإنسان إدراكها بحواسه، ولا تصور حقيقتها وكنهها بعقله، أي: يعرف وجود النفس وصفاتها وأسمائها وأفعالها وكمالاتها، ولا يعرف حقيقتها وكنهها، فقد عرف ربه بالنسبة إلى العالم الكلي (الكون) فيعرف وجوده وصفاته وأسماءه وأفعاله وتدبيره وكمالاته المعرفة الممكنة في حق المخلوقين، ويعرف وجوب التسليم له وطاعته فيما يأمربه وينهى عنه، ويعرف استحالة إدراكه بحواسه، وتصور حقيقة ذاته وكنهه بعقله، وذلك لأن عالم الإنسان نموذج مصغر للعالم الأكبر الكلي، قول الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: «قد علم أولوا الألباب أن الاستدلال على ما هنالك لا يعلم إلا بما هاهنا»[1]، وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «تحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر»، وقوله عليه السلام: «إن الصورة الإنسانية هي أكبر حجة الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه الله بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي مختصر من اللوح المحفوظ، وهي الصراط

١- بحار الأنوار، جزء ١، صفحة ٣١٦

المستقيم، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار»[1].

ومن الملاحظ أن الصورة الإنسانية تمثل مجموع صور العوالم الثلاثة:

- الجسم الذي يمثل عالم المادة (الطبيعة).
- الروح التي تمثل عالم البرزخ (الوسط)، بين المادة والمجردات.
- العقل الذي يمثل عالم المجردات وتشتمل على طريق الجنة وعلى طريق النار.

قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوّٰىهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوٰىهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰىهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰىهَا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3]، ولديها القابلية للتلقي من جنود الرحمن: العقل والملائكة، ومن جنود الهوى والشياطين ونحو ذلك، مما تنفرد به الصورة الإنسانية عن غيرها من صور الموجودات.

وأيضاً من عرف حقيقة نفسه وعرف أنها تمثل حقيقته

١- جامع الأسرار، السيد حيدر الآملي، صفحة ٣٨٣

٢- الشمس: ٧-١٠

٣- البلد: ١٠

وجوهر وجوده، وأساس وحدة شخصيته وكيانه، وإليها يشير بقوله: (أنا) وإليها ينسب جميع أجزائه وكلياته وصفاته وأحواله وأطواره، فيقول: حياتي وطفولتي وشبابي وشيخوختي وسمعي وبصري وفؤادي ورأيي، وقمت وسمعت وأردت وفكرت وقدرت ونحو ذلك، وهو يعلم بأن نفسه غير كل ذلك، فقد عرف بأن قول الله سبحانه وتعالى: عرشي وسمائي وإرادتي وفعلي ونحو ذلك هي من ظهوراته وتجلياته وأنها غيره، قول الإمام الرضا عليه السلام: «كنهه تفريق بينه وبين خلقه»[1].

ملاحظات ختامية

الملاحظة الأولى: يجب التمييز بين النظر إلى النفس وآياتها كآثار ومعلولات يستدل بها على وجود الله سبحانه وتعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله وكمالاته، وبين معرفة النفس والنظر إليها كوسيلة للوصول للمعرفة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين بالله بالمشاهدة والمكاشفة القلبية، وهي معرفة حضورية مباشرة ويقينية لا تقبل الشك ولا تحتمل الخطأ، أي معرفة الله بالله عن طريق تطهير النفس وتزكيتها.

الملاحظة الثانية: يعد البعض القول (الخامس) هو ألصق

١- بحار الأنوار، جزء ٤، صفحة ٢٢٨

الأقوال بالاسـم العظيم (الرب)، وفيه تتوفر السـنخية بين النفس وبين الرب، وإظهار لخصوصية الاسـم العظيم (الرب) أكثر من غيره من الأقوال الخمسة.

الملاحظة الثالثة: إن الأقوال الأربعة (من الثاني إلى الخامس) علـى تنوعهـا وتفاوتهـا يمكن الجمـع بينها للوصول إلـى الصورة الكاملـة الدقيقـة والفهـم الأتـم والأشـمل والأعمـق للحديـث الشريف موضوع البحث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وأيضاً المعرفـة الحقيقية العالية الكاملة الممكنة في حق المخلوقين للمعرفة بالاسم العظيم (الرب).

صدر لدار الوفاء للثقافة والإعلام

سلسلة رجالٌ صدقوا:

١- هكذا عرفوه، الشهيد رضا الغسرة
٢- المؤمن الممهد، الشهيد علي المؤمن
٣- فخر الشهداء، الشهيد عبدالكريم فخراوي
٤- الخارجون من الماء، رواية المحرر من السجون الخليفية محمد طوق، كمال السيّد
٥- القادم من هناك، رواية حول الشهيد القائد رضا الغسرة، كمال السيّد

سلسلة نهج الولاية:

١- العمل المؤسساتي في فكر الإمام الخامنئي
٢- الاستغفار والتوبة، الإمام الخامنئي
٣- التحليل السياسي في فكر الإمام الخامنئي
٤- العبد الصالح، رواية الإمام الخامنئي عن الإمام الخميني
٥- سيد شهداء محور المقاومة، الشهيد القائد قاسم سليماني
٦- عهد الأمير إلى المسؤول والمدير، الإمام الخامنئي
٧- النفوذ في فكر الإمام الخامنئي

سلسلة من داخل السجن:

١- التغيير في سبيل الله، الشيخ زهير عاشور
٢- تأملات في الفكر السياسي، الشيخ زهير عاشور
٣- الإسلام والعلمانية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٤- الرحيل نحو الأبدية، الساعات الأخيرة للشهيد علي العرب قبل إعدامه، كمال السيّد
٥- يسألونك عن عاشوراء، الأستاذ محمد فخراوي
٦- رسول الرحمة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٧- على ضفاف الحسين، الأستاذ محمد سرحان
٨- نشيد الشهادة، شرح وصية الشهيد القائد قاسم سليماني، الأستاذ محمد سرحان
٩- ماضون على دربك، قصص أسرى البحرين بعد استقبال خبر شهادة الحاج قاسم

سليماني
١٠- مرج البحرين يلتقيان، حياة الإمام علي وفاطمة الزهراء (ع)، الأستاذ محمد فخراوي
١١- خط الإمام الخميني، الشيخ جاسم المحروس
١٢- الإسلام دين الفطرة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
١٣- شقشقة المظلوم، شرح الخطبة الشقشقية لأمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ زهير عاشور
١٤- اللامنطق في الفكر والسلوك، مواجهة النبي موسى عليه السلام لفرعون، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين (جزئين)
١٥- وذكرهم بأيام الله، الأستاذ محمد سرحان
١٦- إلى أحبتي، نصائح تربوية إلى الشباب، الشيخ زهير عاشور
١٧- رحيق كربلاء، الشيخ زهير عاشور
١٨- معرفة النفس طريق لمعرفة الرب، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

سلسلة تاريخ البحرين:

١- شهادة وطن، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم
٢- آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود
٣- الإبادة الثقافية في البحرين
٤- تيار الوفاء الإسلامي، المنهج الرؤية الطموح

كتب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين:

١- معرفة النفس طريق لمعرفة الرب
٢- اللامنطق في الفكر والسلوك، مواجهة النبي موسى عليه السلام لفرعون (جزئين)
٣- الإسلام دين الفطرة
٤- رسول الرحمة
٥- الإسلام والعلمانية
٦- الجمري في كلمات أمينه وخليله
٧- القدس صرخة حق
٨- إضاءات على درب سيد الشهداء عليه السلام
٩- قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين عليه السلام
١٠- الدولة والحكومة

١١- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الثاني
١٢- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الأول
١٣- في رحاب أهل البيت عليهم السلام
١٤- الشهادة رحلة العشق الإلهي

كتب أخرى:

١- قافلة الخلود - شهداء البحرين
٢- عاشوراء البحرين ٢٠١٩
٣- كتيّب المقاوم العارف، الشهيد المقاوم أحمد الملالي
٤- عاشوراء البحرين ٢٠١٨
٥- حصاد البحرين ٢٠١٧
٦- عاشوراء البحرين ٢٠١٧
٧- في رحاب مدرسة الإمام الخميني قدس سره
٨- المهدوية في الفكر الولائي
٩- الحصاد السياسي ٢٠١٦
١٠- ألم وأمل، السيد مرتضى السندي

كتب باللغة الفارسية:

١- تغيير در راه خدا (التغيير في سبيل الله)، الشيخ زهير عاشور
٢- بازخوانى خطبه هاى امام حسين (قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٣- بر آستان اهل بيت (في رحاب أهل البيت)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٤- رنج و اميد (ألم وأمل)، السيد مرتضى السندي
٥- گواه ميهن (شهادة وطن)، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم
٦-تاريخ سياه آل خليفة (آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود)
٧-بت شكن (رواية الخارجون من الماء)، كمال السيّد

معرفة النفس تتصل بصورة مباشرة بإصلاح النفس، حيث يعرف الإنسان ما يعرض للنفس من الاعتدال في أمرها أو الطغيان، وما يعرض لها من الأحوال الحسنة أو السيئة، كما يعرف خصائصها وقدراتها وطاقتها وإمكانياتها ومواهبها واستعداداتها، ثم يعمل على إصلاحها برفق وعن علم ومعرفة.